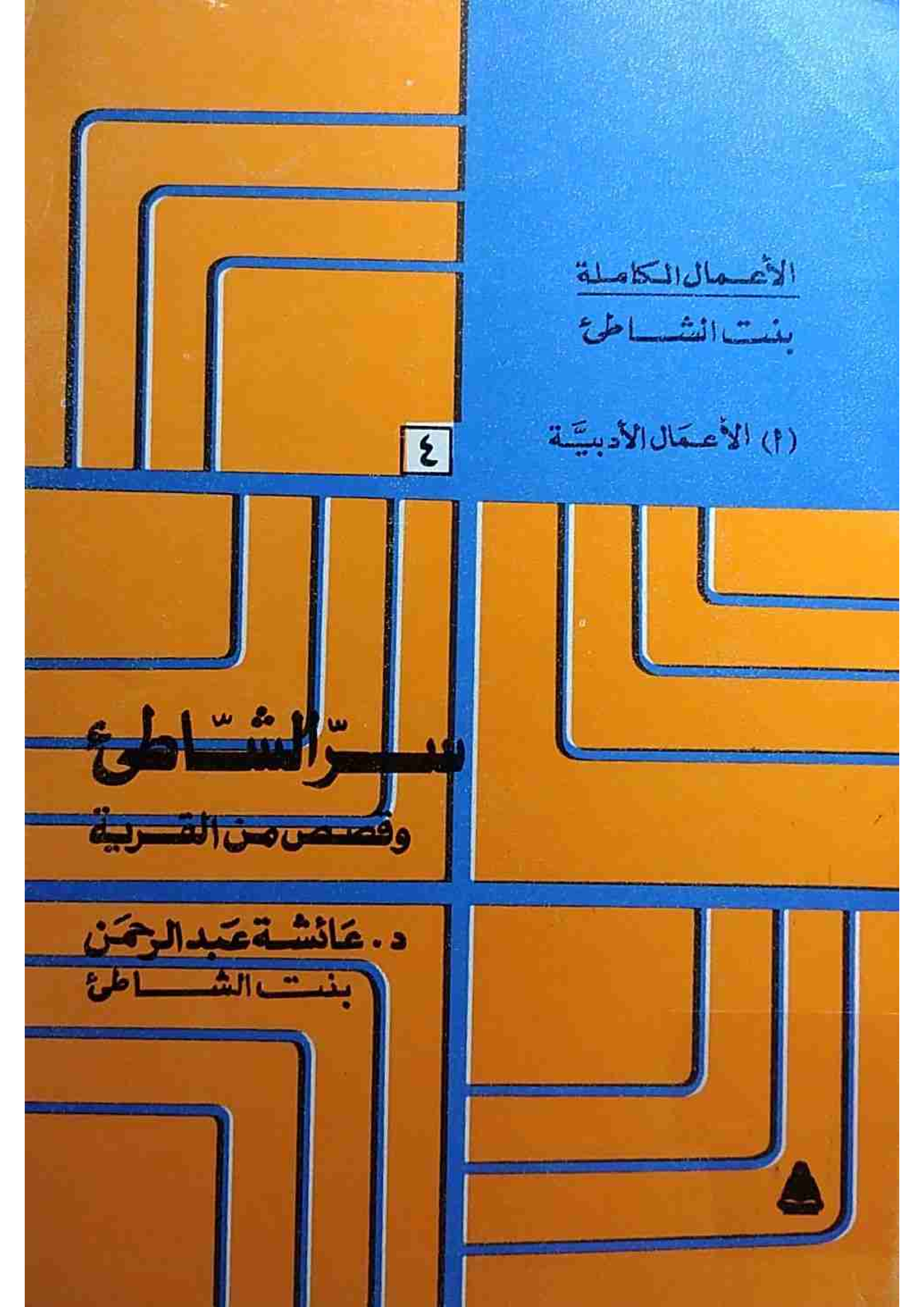

الأعمال الكاملة
بنت الشاطئ
(أ) الأعمال الأدبيّة
٤
سرّ الشّاطئ
وقصص من القرية
د. عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ

الأعمال الكاملة

د. بنت الشاطئ

(أ) الأعمال الأدبيّة

٤ سرّ الشّاطئ

وقصص من القرية

د. عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٢

● الطبعة الثانية

● الطبعة الأولى

الكتاب الذهبى ١٩٤٧

• سر الشاطئ

« منذ عرفت الصبية هذا السر ، لم تعد تجد في الشط ملعبها الأثير ، أو تنشط للقاء صواحبها هناك ، لكنها مع ذاك لم تكره النهر أو تصد عنه ، بل أحست روابط خفية تدنيها منه وتشدها اليه ... »

جلسنا على شط البحيرة فى الفيوم ، نملأ صدورنا من عبير البرية ، ونقلب أبصارنا بين الموج الهادئ وبين الصحراء التى تمتد الى بعيد .. تائهة المعالم ، مرهوبة الصمت ، مقنعة بالغموض .

وسجا الليل ، وسرت فى أعطاف الكوة نشوة أسلمته الى خدر لذيذ ، ثم ما لبث كل شئ حولنا أن طوته اغفاءة وسنى ، تهدهدها موسيقى ناعمة حالمة ، تنبعث من الفندق الكبير القائم على ضفة قارون .

وألفيتنى فجأة ، أطوى السنين وأعبر الأبعاد ... وأسرى على أجنحة سحرية غير منظورة الى أقصى الشمال ، حيث مدينة « دمياط » الساحلية الجميلة يحيطها النيل بذراعه اليمنى فتسكن اليه فى دعة وأنس ، مطلة على البحر من ناحية ، ورانية الى بحيرة المنزلة من ناحية أخرى .

وكنت أعرف وجهتي • سرت في طرقات البلدة ودروبها لا أتوقف ولا أضل •• فقد طالما درجت عليها وتنقلت بينها • واتجهت لتوى الى ناحية معينة من الشاطىء يقوم عليها بيت كبير عتيق ، تصافحه أمواه غادية رائحة ، وتصطفق الموجات على جداره الراسخة ، فيسمع لها صوت مألوف ، نامت طفولتنا على هزاته الأليفة ، وانيس صبانا لنغماته الشجية الطروب •

هناك لقيت الطفلة التى أعرفها •• رأيتها تأخذ غفلة من أهل البيت ، وتتسلل الى الخارج بخطوات مسترقة وأنفاس لاهثة ، ثم تعدو واثبة الى شط النهر ، حيث تجمعت صواحب لها هناك ، لاهيات لاعبات ، يصنعن زوارق من ورق ملون ، ويتشاغلن بتعويمها على سطح الماء فى شبه سباق ، حتى اذا مللن اللعبة ، جلسن على رمال الشط ، يبنين القصور ، أو يصطدن الأسماك •

أقبلت الطفلة عليهن وفى قلبها اثارة من خوف وبقية من قلق ، لكنها لم تكد تندمج فيهن حتى زايلها اضطرابها ، ونسيت كل شىء الا هذه الرفقه العزيزة ، وذلك الملعب الحبيب •

وفجأة ، تفتح نافذة من البيت العتيق ، ويطل منها وجه غاضب ، فتدع الصبية ما هى فيه على عجل ، وتهرع الى الدار ، تلتمس عند أمها حماية من سخط جدها الشيخ ، لكن أمها تتلقاها بالعتب والانكار : ما أكثر ما أمرت الا تخرج الى الشط ، وما أكثرها ما تعصى الذى أمرت به !!

ولم تكن الصغيرة تدرى أول الأمر لم يحال بينها وبين النهر ؟

أيحذر أهلها من اختلاطها ببنات الجيرة ، ولسن جميعا سواء فى التربية والخلق ؟ لكن لا •• ان أمها تغريها باللعب معهن فى أى مكان آخر ، غير هذا النهر الممنوع •

فلعلهم اذن يبالغون فى الخوف عليها من الغرق ؟ ولكن عجبا ! • وليس للصواحب كلهن آباء وأمهات ؟ بلى ، وانهن جميعا عزيزات على أهليهن ، وهن مع ذلك يأتين الى النهر على هواهن ، وبعلم أهليهن !

وغلب عليها التعلق بالممنوع ، فكانت تنزوى فى ركن من البيت صامتة محزونة ، وقد وكلوا بهـا حاضنة عجوزا تراقبها وتخفيها •

★★★

ومضت الأيام •••

فلا هى غالبت هواها وصرفت نفسها عما منعت منه ، ولا أهلهـا نزلوا عن اصرارهم عـلى الحيلـولة بينها وبين ما تهوى !

وكان النهر دائما هو المنتصر :

فما تركت الصبية حيلة تحتـال بهـا عـلى الخروج ، الا فعلت ، لكى تنطلق الى مجمع الصواحب على شط النيل :

ورضيت أن تحتمل فى ذلك ، ما كانت تلقى من سخط أهلها واعناتهم ، فما ذلك كله بالثمن الغالى ، لمتعتها المفضلة •

ثمت شىء واحد كان يمسكها عن الخروج الى ملعبهـا العزيز :

ذلك هو المساء !

لقد ملأ لياليها بسمر رهيب عن جن المـاء ، وشحنوا خيالها بما زعمـوا أنهم رأوه من أفاعيـل البحر : أشباح تتصادم ، وشخوص تتقاتل ، وسيوف تلمع ، وزئير يسمع ، وجنيات الماء يخرجن كل مساء يطلبن صيدا من بنى البشر !

ولم تكن أمها تنفى شيئا من ذلك أو تثبته ، بل لعلهـا كانت أقرب الى تأييـد ما يبعث فيهـا الذعر من هـذا اليم

المرهوب ، فقد كانت طوال المدى خائفة عليها ، تذكر لها ما اختطف اليم من ضحايا ، وتروى لها ما سمعت من مآسيه .

وعجزت الطفلة عن مغالبة الخوف من تهاويل الظلام ، فلم تكن تجرؤ على الخروج اذا جن المساء . كان هذا الملعب ينقلب مع مغرب الشمس الى مسرح منكر لألاعيب الجن ، وميدان لمعركة رهيبة بينهم وبين أبناء البر .

وأما غيرها من صغار الحى ، فقد كانوا يهرعون الى ملعبهم فى الأمسيات القمراء من شهور الصيف ، وطالما رفعوا أصواتهم ينادون صاحبتهم لكى تنزل اليهم فتشاركهم اللهو والسمر ، لكنها لا تكاد تخطو بضع خطوات فى الممر الطويل الذى ينتهى الى الشط حتى ترتد مذعورة ، تنشد النجاة من أشباح تتصورها جاثمة فى منعرجات الممر ومنحنياته المظلمة !

فاذا لاحت تباشير الصباح ، وبدأت الأشعة المضيئة تمزق ذلك الستار الأسود الحالك الذى يلف الكون ويطويه ، نهضت الصبية الى النافذة ، تحيى النهر ، وتملأ عينيها من جماله دون رعب أو فزع .

★★★

ونمت الطفلة ونما معها ادراكها ..

بدا لها أن كل من فى البيت يرهب النهر ، وراعتها نظرات حزينة شاردة ، ترسلها الأعين كلما وقعت عليه ... فأحست أن ثمت سرا مروعا بين البيت الكبير وهذه الامواه التى تجرى من تحته ، وصور لها وهمها — المشحون بالأساطير — شبحا يثب من أعماق اليم فى جنح الظلام ، فيطوف بحجرات البيت وأبهائه ، ويجثم كالكابوس على أنفاس الراقدين .

وكان يخيل اليها أحيانا — وهى راقدة فى فراشها — أنها تسمع وطء قدميه فى الدهليز الطويل المتعرج ، وتحس

لفحة باردة من حركات زعانفه حول مضاجع النوام ، لكنها لم تجرؤ قط على أن تستبين أمره أو تتحقق من رؤيته ، بل كانت تمسك أنفاسها وتطبق أجفانها ، وتنكمش فى حضن أمها حتى يلم بها الكرى فتنام •

★★★

حتى كانت ليلة من ليالى الشتاء ، وقد هبت ريح عاصفة أثارت الأمواج فراحت تلطم جدران البيت هادرة معولة ، وتقلبت الصبية فى فراشها تتلمس أمها خائفة مقرورة ، فراعها أنها لم تك هناك • وهمت لتناديها ، لكنها أمسكت حين سمعت شهقة خافتة وأنينا مختنقا ، ولما فتحت عينيها على حذر ، لمحت أمها واقفة ، تحدق فى الموج المتلاطم ، وتصغى الى عويل الرياح •

وقامت اليها •••

رنت أمها اليها ، كأن فيها جديدا ، ثم قالت هامسة :

ـ أراك كبرت يا طفلتى ؟

قالت وهى تواجه أمها ، ثابتة النظرة :

ـ أجل يا أم ، فهلا حدثتنى عما يشجيك ؟ انك تغرقين أحيانا كثيرة فى حزن صامت مرهق ، وكذلك تفعل جدتك ، وخالتك ! ما جمعكن مجلس الا حسبتكن فى مأتم ، وأريد أن أعرف ، لماذا ؟

فعادت الأم تنظر اليها تلك النظرة الطويلة الفاحصة ، ثم أدنتها من النافذة وهمست فى صوت أبح :

ـ حدقى فى هذه الأمواج وأخبرينى : هل ترين طيف امرأة تصارع وحوش الماء ؟ •• ثم أنصتى الى عويل الموج وعواء الريح ونبئينى : هل تميزين صوت أنثى من البشر ، تنادى وتستغيث ؟

فصدعت الفتاة بما أمرت به ، وخيل اليها أنهـا حقـا تسمع أصواتا مختلطة ، وتلمح أشـباحا ضـالة تائهة بين الأمواج ، لكنهـا لم تعرف عـلى التحقيق ، ماذا تبغى الأم ، فسألت :

ـ عمن تبحثين يا أمى ؟

أجابت على الفور :

ـ عن أمى !

فصمتت الفتاة لحظة تفكر : كانت تعلم أن تلك الأيام المفتقدة قد ماتت من زمن بعيد •• ماتت قبل أن تولد هى وترى النور ، فأى هاتف أحضر ذكراها فى جوف هذا الليل البهيم ؟

قالت وقد أعياها الجواب :

ـ ما الذى هاج شجونك فذكرت من فقدتها منذ أعوام؟

فأشارت أمها الى الموج المضطرب قائلة :

ـ وهل نسيتها يا طفلتى حتى أذكرها ؟ ما رأيت هـذا النهر قط الا ذكرت مصرعها ! وما شهدت تقلبه الا خلتهـا محمولة على أمواجه العابثة ، تتقاذفها موجة فى اثر موجة ، حتى اذا سكن ثائره ، عادت الى مستقرها فى أعماق اليم : جثة مجهدة ممزقة •

رددت الفتاة وهى ترتجف ألما ورعبا :

ـ حسبتها ماتت كما يموت الناس جميعا ، وليس كمـا تهذى به « داده حليمة » •

فأجابت الأم وهى تغص بريقها :

ـ كلا يا طفلتى ، لم تمت كمـا يمـوت النـاس ، بل اختطفها هذا النهر ، ثم لم يلفظ جثتها حتى الساعة ••

ماتت الكلمات على شفتيها ، فقد لمحت جدة أمها تجلس في فراشها زائغة النظرة بادية الشحوب ، ثم سمعتها تسأل في ذهول :

ـ هل رأيتها ؟

أجابتها الأم الشابة :

ـ ليس بعد ياجدتي ، فهلا عدت الى فراشك لتستريحي ؟

فلم يبد عليها أنها سمعت ما قيل ، وهزت رأسها ورددت ذاهلة :

ـ منذ اختطفها البحر وأنا أنتظر ! لقد أنبئت انها لابد عائدة .. بهذا حدثتني الأطياف التي تلم بي وافدة من مستقرها العميق البعيد ! وأنا قد جاورت هذا اليم ستين عاما أو أكثر ، فما عهدته يحتفظ بجثث من يغتصب أرواحهم من أبناء البر .

قالت الطفلة في سذاجة :

ـ فلعل الأسماك يا جدتي قد ...

ولم تتم كلمتها ، اذ أطبقت يد الأم على فمها وأمسكت الكلمة الكبيرة قبل أن تلفظ ، لكن الشيخة لم يغب عنها ما كانت تريد الفتاة أن تقول ، فظللت وجهها سحابة أحالت شحوبها زرقة كابية ، ثم ثابت الى نفسها ورددت في ايمان :

ـ كلا لم تأكلها الأسماك .. وكيف وهذا طيفها يلم بنا زائرا كل مساء ؟ وهذا صدى صوتها ملء مسمعي في كل مكان بالدار ؟ لو أن وحوش الماء قد نهشت جسدها لما بقي منها طيف ولا صدى ! بهذا آمن آباؤنا وأجدادنا من قبل ، ممن عرفوا أسرار البحر وبلوا أخلاق أهله !

كلا ، ان جسد الغريقة ما برح سليما ، وسوف يطفو على سطح الماء ذات يوم !

سمعت الفتاة بقية القصة ، من « داده حليمة » حاضنة عجوز أعتقها جد الأسرة قبل وفاته ، فلم تهش لحريتها ، بل بقيت تعيش فى كنف البيت الذى لم تعرف من الدنيا سواه .

سمعت أن جدتها نزلت فى صبيحة باكرة الى النهر ، كما تعودت أن تفعل ابان الصيف ، فلما طالت غيبتها افتقدها أهلها فلم يجدوا منها سوى خمارها وخفها على حافة النهر ، الى جانب (باب الحريم) المفتـوح عـلى الشـط الشرقى ، وشهدوا نفرا من الملاحين ، يغطسون فى الماء ويطـوفون ، بحثا عن غريقة ، رأوها من مرساهم فى الغرب ، تنزلق الى جوف اليم !

وعبثا حاولوا انقاذها . بل عبثا حاولوا الظفر بجثتها .

التأم سطح النهر بعد أن طواها ، واستأنف سيره الأول ، هادئا ، لا يبالى .

ويئس الناس من أمرها لكن أهلها لم ييأسوا ..

ترك أخوها دراسـته بالمعهـد الدينى واشتغل بالبحث عنها : يستأجر كل يوم غطاسا ، ويمضى به الى منطقة النهر ، ثم يقف منتظرا عودته من الأعماق ، فاذا كان اليوم التالى ، مضى فاستأجر غطاسا آخر ومضى به الى منطقة أخرى ، وهكذا على طول المجرى من جنوب المدينة ، الى أقصى الشمال حيث مصب النهر .

ونفض الغاطسون قطرات الماء العالقة بأبدانهم وكفـوا عن البحث .

وبقى الفتى المسكين عنـد البقعة التى انزلقت منهـا أخته ، ينتظر أن تنحسر احـدى هـذه الموجات المتجددة عن جسم الشهيدة !

واختارت أمها لها مجلسا عنـد أقرب نافذة الى مسرح المأسـاة ، تحـدق فى قبر الراحلة ، حتى اذا كل بصرها ،

احتضنت الابنــة التى تركتهــا الراحلة الغــالية ، وراحت تحدثها عن الأوبة المنتظرة ، لتلك التى غيبها الماء !

وبلغ الأمر مداه ..

حمل الأخ المسكين قسرا ، بعيدا عن الشط ، بعــد أن خسر نفسه وخسره أهله .

وألحت العلة على الشيخة الثاكلة فلم يعد يمســكها الى الحياة سوى أملها الراسخ فى أن يطفو جسد ابنتها ، فتراها لحظة واحدة ثم تموت .

وكبرت الابنة ، وتزوجت ، وخلفت ، لكنهــا بقيت الى جوارها الثاكلة ، تعينها فى تلك الشيخوخة الحزينة المحطومة .

وكانت كلما جن الليل قادت الشيخة الى فراشها وسألتها:

هل من حاجة ؟

فيكون الجواب الواحد :

ـ أجل ، تجلسين فى مكانى عند النافذة ، فترقبين الموج حتى اذا رد الماء أمك أسرعت الى ..

★★★

ونسج الزمن من الأيام أعواما ..

ومرت الأعــوام طويلة بطيئــة ، فلا الغائبــة عادت ، ولا ذكراها طويت ، ولا استراح الأحياء الى يأس ..

وكان هذا هو سر ما بين النهــر ، وبين البيت القــديم القائم على شاطئه .

عرفته الفتاة ، فلم تعد تجد فى الشط ملعبها الأثير ، أو تنشط للقاء صواحبها هناك ، لكنها مع ذلك لم تكره النهــر أو تصد عنه ، بل أحست روابط خفية تدنيها منه وتشدها اليه . انها لم تشهد مصرع جدتهــا ، ولكنهــا أدركت ذيول المأساة . ومهما تكن الأيام قد باعدت بينها وبين الفاجعة ،

فانها لم تنسها أن فى هذا الحوض مثوى عزيزة من قومها ، وأن أمواجه امتزجت بدموع الباكيات عليها من أهلها .

وتعودت الفتاة بعد ذلك أن تقصد الى الشاطىء فى الصبح الندى وابان الأصيل ، فتدلف فى بطء الى احدى المراكب الشراعية الراسية على (شونة) البيت ، حيث تمضى ساعات ذات عدد ، فى تأمل شجى حزين لم يكن يلائم صباها الغض !!

وكان المكان يبدو خاليا أو يكاد ، فحين ترسو هذه السفن آيبة من رحلتها الى سواحل الشام ، يسرع ملاحوها بتفريغ حمولتها ثم يهرعون الى أهليهم فيمضون أياما فى شبه اجازة ، ريثما يوسق التجار مراكبهم ثانية ، بالبضائع المحلية .

وهكذا كانت الفتاة تجد من هذه السفن المهجورة على الشط ، مراحا لأخيلتها ، ومسرحا لتصوراتها ، ومجالا لتأملاتها !!

وكثيرا ما كانت تنسى نفسها فى استغراقها المتمادى ، فلا تئوب الى البيت حتى تأتى حاضنتها ، فتمضى بها الى مأواها ، صامتة مستسلمة .

★★★

وكرت الأعوام ...

وشبت الفتاة وشب معها خيالها الذى أرهقته أشجان نشأتها فى البيت الحزين ..

ونضج حسها الذى صقلته رؤى الأطياف وأقاصيص السمار ، وتفتحت مداركها فى تلك البيئة الحافلة بالسحر والشعر ، والألم .

وكان جد أمها ، أول من التفت اليها فى تذوقها المبكر لآيات الجمال ، وولعها بحسن التعبير ، فأحب أن يرعى تلك

الموهبة الناشئة ، وأن يصقلها بما امتاز به من براعة فى النقد ودقة الملاحظة • وبدأ فقربها اليه وآثرها ــ دون أترابها من حفيداته ــ بعنايته وجهده ، ثم مضى يمرن قلمها على تسجيل ملاحظاته وتدوين أفكاره ، فى رسائل يبعث بها الى الصحف • وطاب له الأمر حتى غدا مبعث لذته ورضاه ، فى شيخوخته التى أبلت من الأعوام ثمانين !

وكرت أعوام أخر ••

وغيب الثرى ذلك الجد الكريم ، بعد أن فتح بيده الكليلة الواهنة ، باب المستقبل الذى رجاه لحفيدته ، وأراده لتلميذته وصفيته !

فعل ذلك في ظروف قاسية ، كلفته ثمنا غاليا ، بمغاضبة والدها ، وهو من أولياء الله الصالحين •••

★★★

وبدا للفتاة يوما فجلست تنفس عن نفسها ما يرهقها من مشاعر ، وتصور ما يتراءى لها من خواطر واحلام ، فكان ان وجدت فى ذلك راحة نفسية ما لبثت ان صارت نشوة ومتعة • ثم لم تكد تجد مشاعرها مسطورة امامها ، حتى أحست رغبة ــ لا تقاوم ــ فى أن تبعث بها الى الصحف ، كما كان يفعل جدها الكبير ! وجلست فتهيأت لنسخ ما كتبت ، على ورق مصقول تعبت فى سبيل الظفر به ، وعكفت تتأنق فى الكتابة والتحبير حتى اذا آن لها أن توقع مقالها ، وقف القلم بين أناملها عصيا جامدا !

هنالك ذكرت ما كانت نسيته فى اشتغالها بالكتابة :

ذكرت أن أباها الذى أبى أن يخرجها فى سن السادسة الى دار العلم ، وتخلى عنها يوم حملها جد أمها بالرغم منه الى مدرسة البنات ، يستحيل أن يسمح بظهور اسمها ــ وهى من حريمه ــ فى الصحف والمجلات ! انه ليؤثر أن يقرأ نعيها فى عمود الوفيات ، على أن يرى توقيعها فى ذيل المقالات •

وهكذا طوت الفتاة ما كتبت ، وانطوت على حسرة ويأس ..

ثم كانت أمها الملاذ فى تلك اللحظة الحاسمة ، فبدأ عهد جديد ، للفتاة الطامحة ..

لقد وجدت الأم لها مخرجا ، فكأنما ولدتها مرة ثانية :

انها تستطيع أن تكتب ما شاءت ، وتوقعه باسم مستعار .

ولم تلقيا عناء فى اختيار ذلك الاسم ..

نظرتا معا ــ وفى لحظة واحدة ــ الى الشاطىء ..

مدرج الطفولة ، وملعب الحداثة ومراح الصبا .

مجلى الرؤى ، ومسرح الأحلام والأوهام .

منبع الوحى ، ومصدر الالهام .

هذا الذى شهد ، ورأى ، وسمع :

شهد مصرع أم شابة ، ورأى فاجعة بيت وأحزان أسرة ، وسمع أنين الذين أضنتهم المواجع ، وأذابتهم الهموم .

وقتئذ ترنحت الأم اليتيمة ، على حين أشرق وجه الفتاة بنور شاحب ، ثم نهضت فوقعت ما كتبت باسمها الجديد : « بنت الشاطىء » .

• الوالدة

« كانت مقيدة بحدود تجربتها الخاصة ، تجد أمها في كل أنثى ، وتتمثل اباها في كل رجل ! ألجمت المحنة القديمة حركتها ، وقصت جناحيها ، فاعياها أن تحلق بعيدا عن عالمها ذاك المحدود ، أو أن تجاوزه الى أفق الحياة في سعته ورحابته

« لذلك لم يستطع خيالها ان يتصور أنثى قاسية أو خاطئة ! لقد اقترنت الأنوثة عندها بالأمومة ، وهي في تجربتها قداسة وطهر ورحمة وفي دنياها نور وخير وجمال .

حين بشرت بمولد الذكر الأول ، أخذتها غفوة حالمة ، نسيت فيها أثقال الحمل وآلام الوضع ومخاطر التجربة ، وأسلمت نفسها الى حلم طويل ، بالرغم مما كان يضج حولها من هتاف المباركين ، وصيحات المهنئات ، من الأهل والصواحب والأصدقاء .

وبدا للقوم أنها فى غيبوبة ، فظهر عليهم ما يشبه القلق ، ودنا الزوج منها يناديها فى رقة وتشجيع ، لتسترد عافيتها ، من أجل الوليد الجديد .

فأشارت الوالدة بيد واهنة ، ترجو القوم أن ينصرفوا عنهـا ولا يشـغلوا بهـا وردت ــ وهى لا تزال فى غشـيه الحلم ــ انها بخير ، وما بها من حاجة الى غير خلوة قصـيرة لتستريح •

فتبادل القوم نظرة باسمة وقد جرى فى وهمهم أن هذا نوع من الدلال •

ولم لا ؟ ألم تلد ذكرا ؟

لكنها كانت خالية النفس تماما من هـذا الدلال الذى وهمه قومها ، وانما هاج مولد الصبى شـجونا لها قديمة ، وذكرها بمأساة فاجعة ، كانت أمها بطلتها الشهيدة •

لقد أهدر حق تلك الأم فى الحياة أنها لم تلد ذكرا •• وهى تحن اليها في تلك الساعة حنينا موجعا ، ويشوقها أن يدعها القوم لكي تخلو الى طيف أمهـا الحبيب ، الذى كان يحوم حولها ، ويطوف بها فى جنان مثير •

ولبى القوم رجاءها على كره منهم ، وبدأوا يغـادرون مخـدعها وهى مغمضة العينين ، لاترى وجـوههم الطـافحة بالبشر ، ولا تشهد عيـونهم المتعلقة بالوليـد فى فرح مىء بالاعزاز •

لقد غابت عنهم ، وعن وليدها •• ومضت بعيدا الى حيث لقيت أمها الراحلة ، ورافقتها فى طريق حياتها الملىء بالصخور والأشواك ، المظلل بسحب من الهموم والأشجان •

تعلقت بها وهى تجتاز هـذا الطريق حزينة مقهورة ، وعلى ذراعها طفلة بريئة هجرها أبوها لأنهـا لم تكن الولد الذى تعلق به وانتظره !

وقد ماتت الأم غريقة ، وسجلت فى ديوان الشهداء •

ولكن الطفلة عاشت ، وأنضـجتها الأيام ، فتزوجت ، وشهدت ــ وفى حياتها الخاصة ــ مأساة أمها مرتين :

لقد بكرت كأمها بأنثى .

ثم ثنت بأنثى ..

ورأت كيف تربد وجوه القوم حين يبشرون بالنبأ ، وأحست غيظهم المكظوم وهم يهنئونها تهنئة مغتصبة ، ويهونون عليها المصاب بما من الله به عليها من سلامة ونجاة!

وشاهدت احتفالهم الرهيب بمولد طفلتيها ، اذ أحاطوا بمهد الوليدة الأنثى واجمين كأنهم يحيطون بجثة ميت ، وراحوا يرددون عبارات العزاء فى الأمل الذى خاب ، ويسألون الله العوض فى حمل جديد ، يتمخض عن ذكر !

وذكرت ـ ولما تكد صيحات الوضع يغيب صداها ـ تلك الأغانى الفاجعة التى زفوا بها مولودتها الأولى ثم الثانية ، فقد اجتمع صبية الأسرة يرددون ـ على لسانها ـ فى نغمة شبيهة بالنواح :

لما قالوا دا غلام   انشد عظمى وقام
وجابوا لى البيض مقشر   وعليه السمن عام
ولما قالوا دى بنيه   انهد ركن البيت عليه
وجابوا لى البيض بقشره   وعليه السمن ميه
لما قالوا بنت   قلت ليلة زى الزفت
اللى اتعشى نفد بعشاه   وأبوها بايت فى البشت

ولمحت ـ برغم وهن الولادة ـ كيف تسلل الأقارب والأصدقاء يخفون ما كانوا يحملون من هدايا للوليد ، وكيف قوضت معالم الزينة التى كانت قد أعدت ـ مقدما ـ للمولود المنتظر ، وألغيت برامج الاستقبال الشائق التى نظمت للاحتفال به ..

ذكرت الوالدة ذلك كله ورأته فى لحظتها رأى العين ، فتمثلت لها ساعة مولدها مرعبة قاسية ، ولاح لعينيها طيف

أمها تهجر فى وحشية أليمة ولما تزل نفساء ، وترد الى بيت أبويها حاملة وليدة ، كل ذنبها أن لم تكن ذكرا !

ان القدر كان أرحم بالابنة الوالدة ، وآية رحمته ان الزوج ــ وهو مشهور بالتقى والصلاح ــ لم يهجرها يوم وضعت أنثاها الأولى كما فعل أبوها من قبل ، بل رنا الى غد قريب مأمول ، ثم راح يتلو فى تصبر قوله تعالى : « رب انى وضعتها أنثى » .

كذلك لم يهجرها فى المرة الثانية ، بل رفع وجهه الى السماء حامدا لله ما أعطى ، وهو يتلو من كتاب الله الكريم : « وليس الذكر كالأنثى » .

★★★

وكفت الوالدة عن المضى فى تأملاتها ، حين أيقظتها بغتة ، صيحة من الوليد انفتح الباب على أثرها فى عنف ، واندفع كل من فى الدار ، يسألون لم يبكى الغالى ، كأنما البكاء لمثله لا يجوز !

وعلا الضجيج فى البيت ، وأقبل عمال متجر كبير فى المدينة ، يحملون مهدا فاخرا اشتراه الأهل للوليد العزيز .

وأوقدت الشموع ..

ونسقت الزهور ..

ثم مضت فى أثر ذلك أيام مرهقة وليال ساهرات ، لم تهدأ للدار فيها حركة ، ولا خف لها ضجيج .

وفود من المهنئين المباركين ، هرعوا الى البيت يحيون الصغير الكبير .

وزوار من الأقاليم ، وفدوا يشاركون الأسرة فى الاحتفال بالحادث السعيد .

وجماعة من النسوة ، لسن بأهل ولا أصدقاء ، وانما جذبتهن أضواء الفرح فتهافتن عليها ، وأحطن بمهد المولود

يبشرنه بالطالع السعيد ، ويحملن الى أهله نبوءات تلقينها من شيوخ (الودع) ، (الفنجان) ، وسادة (الورق) وكشف لهن فيها عن المستقبل السعيد ، للصبي الموعود ٠

وأخريات من فقيرات الحي ، أتين يعرضن خدماتهن وقد علمن أنه صار من حق الوالدة أن تكون ذات خدم وحشم، بعد أن وضعت ذكرا ٠

وطبول وزمور ٠٠

ومآدب وأفراح ٠٠

ودعوات وصلوات ٠٠

والوالدة لا تزال في مخدعها ، يدللها القوم باصرارهم على أن تظل مستريحة في فراشها ، لكيلا تشغل بغير وليدها ، فتغتبط هي بذلك التدليل ، وتجد فيه فرصة للشرود الحالم، في عالمها الخاص ٠

حتى أذن للناس أن ينصرفوا مشكورين ، بعد أن أبلوا البلاد الحسن في الاحتفال بالحادث السعيد :

سعى الأب الصالح الى بيت الله الحرام ، وفاء بالنذر وشكرا على النعمة ٠

وأغلقت الأم عليها بيتها ، وراحت ترعى صغارها ٠

على أنها كانت لا تكاد تفرغ من شئون البيت حتى تهرع الى مجلسها في غرفتها المطلة على النهر ، وفي يدها ثوب تخيطه للصغير ، وأمامها طفلتاها ، تحيطان بمهده الجميل في تعجب واكبار ٠٠

لقد ألقي في روعهما أنه صنف ممتاز ، ولم يكن عقلهما الصغير يفهم سر امتيازه عليهما وهو ابن أمهما وأبيهما ، لا فرق بينه وبينهما الا أنه يصغرهما في السن ٠

ولكنهما مع ذلك رأتا من تقدير الأهل له واعزازهم اياه

واحتفالهم به ، ما أدخل فى قلبيهما شعورا من الاجلال الممتزج بالرهبة والعجب .

وانهما لتذكران ــ على حداثة السن ــ دعوة الأهل لهما بأن تعيشا لتحضنا أخا لهما ذكرا ، فيخيل اليهما أنهما ما خلقتا لغير ذاك ، وانهما ما كانتا لتغيشا لو لم تستجب السماء للدعوة الحارة المباركة ، وتنعم عليهما بهذا الأخ الذكر ، كى تحملاه وتدللاه !

ولم تكونا بحاجة الى من ينبههما الى أداء واجبهما نحوه، فقد قامتا بذلك من تلقاء نفسيهما ، راضيتين شاكرتين !

★★★

وتدع الأم ما بيدها جانبا وتلقى نظرة على الطفلتين فتندى عيناها شجوا وحنانا ورحمة ، حتى اذا انتقل بصرها الى الصبى المولود غشيتها غاشية من الضيق والقلق : انها ترى فى طفلتيها ملامح أمومتها الرقيقة الناعمة الشاعرة ، على حين تلمح حول الوليد ، ظلا من القسوة والخشونة ، والصلف والجمود !

أكانت واهمة ؟

أم لعلها كانت متأثرة بما بلت فى حياتها من قسوة الأب الرجل وحنان الأم الأنثى ؟

لقد جاهدت مخلصة لكى تدفع هذا الوهم ، وتكذب حسها فيه ، برا بوليدها ، واشفاقا عليه وعلى نفسها من قسوة اللمحة وهول الخاطرة ! لكنها لم تستطع قط أن تحمى طفلها من آثار تجربتها الخاصة ، ولا أن تمحو من صفحة وجهه ، ذلك الظل المنعكس عليه من أبيها !

كم أنكرت ذلك من نفسها على نفسها ! لكن ذلك الانكار لم يبرئها من وهمها ، ولا أزال عن طفليها ذلك الظل الأليم، فكلما وقعت عيناها عليه ، تراءت لها صور متلاحقة ، من قسوة الذكور وجمودهم :

رأت أبناء عاقين تعرفهم ، استبطأوا موت أبيهم الشيخ فذبحوه بأيديهم ، ليعجلوا استمتاعهم بما جمع لهم من مال .

ورأت آباء غلاظ الأكباد ، متحجرى القلوب ، تركوا صغارهم - بعد موت امهاتهم - شردا ضالين ، وتخلصوا منهم لينطلقوا خفافا ، فيتزوجوا من جديد !

ورأت أخوة ذكورا بالغين ، باعوا اخواتهم الغريرات للشيطان كى يظفروا بالثمن البخس الدنىء .

ولم تشهد بين هؤلاء ولا هؤلاء صورة واحدة لأنثى .

كانت مقيدة بحدود تجربتها الخاصة ، تجد أمها الرقيقة فى كل أنثى ، وتتمثل أباها القاسى فى كل ذكر ، الجمت المحنة القديمة فكرها ، وقصت جناحيها ، فأعياها أن تحلق بعيدا عن عالمها ذاك المحدود ، أو أن تجاوزه الى أفق الحياة فى سعته ورحابته وتنوع مشاهده .

لذلك لم يستطع خيالها أن يتصور أنثى قاسية أو خاطئة !

لقد اقترنت الأنوثة عندها بالأمومة ، والأمومة فى تجربتها قداسة وطهر ورحمة ، وفى دنياها نور وخير وجمال !

★★★

وكانت تؤوب من مسراها متعبة واهنة ، وقد أرهقها الشجن ونال منها الاعياء ، فتخطو فى ضعف نحو مهد الصغير ، تقف برهة ترنو اليه واجفة ، ثم ترفعه من فراشه وتدنيه من قلبها ، تريد أن تنصف طفولته البريئة من سوء رأيها فى الجنس ، وأن تجد له من رحمة أمومتها ما يحميه من وهمها المسيطر ، وخيالها المهيض الجناحين ، وماضيها الجريح المروع بذكرياته المرة ، وقلبها الذى لا يزال يتلوى من جراحه ، ويئن مما لاقى من قسوة الرجل ، وظلم الأب .

● المنتصرة

... وسجلت الحياة أن واحدة من ضحايا الانقلاب الاجتماعى قد نجت أخيرا من ضلال الانحراف وشذوذ الوضع فى بيئة موبوءة بالمنبوذين ، ومرضى النفوس والضمائر ...

هذه قصة أرويها اليوم غير مختارة ، فلقد ظللت أدخرها زمانا لا أريد أن أجعل منها احدى الصور التى أرسمها فى اجمال ، دون أن أطيل العكوف عليها أو أستجيب لكل ما فيها من ايحاء . وانما رجوت أن أفرغ لها فى غد لم يكن يعنينى قربه أو بعده ، بقدر ما عنانى أن أجد فيه فرصة متاحة ، أنقطع خلالها الى التأمل ، كى أكتب منها قصة كاملة .

هكذا شئت ، لكن الأقدار شاءت غير ذاك ، فكانت مشيئة الأقدار .

بل لماذا لا أقول ان أحد أبطال القصة هو الذى طلب الى أن أعجل بروايتها ، فأعفانى مما كنت أشعر به من حرج وتردد ، حين كتب الى ــ تعليقا على مقالات نشرتها بالأهرام منذ حين عن حياتنا الجامعية ــ يذكرنى بتلك المأساة التى ترددت فى نشرها ، ويسألنى لم لا أحدث قومى عنها ليعرفوا ما يلقى الشباب ؟

فبدا لى أن أستجيب ، وهذه هى ، تحدث عما لقينا ـ نحن فتيات الجيل ـ فى فترة الانقلاب الاجتماعى العنيف ، وتشهد بفداحة الثمن الذى دفعناه ضريبة انتقال ٠

★★★

كانت من لداتى وأترابى ، جمعتنى وإياها ملاعب الطفولة ومدارج الحداثة ، ثم التقينا معا فى المدرسة الأميرية الوحيدة ، ببلدتنا الساحلية الجميلة ٠

ولم يكن فى زيها أو سمتها ما يلفت العين أو يجذب البصر ، بل لعلها كانت أقلنا عناية بهندامها وتأنقا فى مظهرها ، رغم أنها كانت تنتمى الى أسرة طيبة ، فأبوها من السادة العلماء ، وأمها سليلة بيت كريم عريق ، ولآلها وذويها فى البلدة مكانة وجاه ٠

ولست أذكر الآن كيف ومتى كان لقاؤنا الأول ، فلقد تباعد به العهد وطال عليه المدى ، وطواه الزمان فى مرحلة من طفولتنا الباكرة ، لا نعى كل أحداثها ولا نلمح من صورها الا ظلالا مبهمة ، قد لفها ضباب السنين ، وقصر عن ادراكها وعى الحداثة الأولى ٠

كل ما أذكره أننى فتحت عينى فألفيتها الى جانبى : فى الملعب ، وفى حجرة الدراسة ٠ وقد حببها الى وأدناها منى ، لطف فى طباعها ونبل فى أخلاقها ورقة فى احساسها ، مع ذكاء لماح ، ونفس متفتحة لدعاء الخير والجمال ٠

وكان لنا نفر من الصحاب ، تعودنا أن نمضى جمعا فى رحلات قصيرة لصيد السمك أو جمع الزهور البرية التى تتوارى فى الأعشاب النامية على الشطوط ، وقد يحلو لنا أحيانا أن نستأجر قاربا صغيرا نمضى به ـ معشر الفتيات ـ فى عرض النهر ، تاركين الصبيان من ورائنا يحاولون أن يلحقوا بنا سابحين ، فأيهم سبق اخوانه ، عقدنا له تاجا نجدله من سعف النخل ، ونزينه بزهرات « البشنين » وأغصان « البرنوف والعطر شان » ٠ وأما من يتخلف منهم فجزاؤه أن

يقف على الشط ذليلا وريثما نعود من نزهتنا فنسخر به ما شئنا وشاء لنا عبث الصبا .

★★★

وذات يوم ، توجهنا الى النهر كعادتنا ففوجئنا بتراجع « علية » التى اصطفيتها لى زميلة وصاحبة . وعبثا حاولنا أن نحملها على مصاحبتنا ، فقد أبت الا أن تعتزلنا فى نفور وجفاء . ثم انتحت بى جانبا ورجتنى ألا ألح عليها فى ذلك ، فان أهلها قد أمروها ألا تصحبنا ، وهى لا تريد — أو لا تملك — أن تعصى لهم أمرا .

فسألت فى غضب مكبوح :

— هل لى أن أعرف لم ؟

فحدقت فى بعينيها النجلاوين قائلة :

— عفوا ، فما فى الأمر ما يجرحك . انما حرموا على أن يجمعنى و « س » مجلس أو مكان !

فتعجبت لذاك ، اذ كنت أعرف أن بين عائلتها وعائلة « س » صحبة ومودة ، وقد جمعتهما جيرة متصلة ، وتقارب فى المستوى الاجتماعى . وكان «س» فوق ذلك ، أحد الطلبة المقربين من أبيها العالم المدرس ، فهل أنكره أهلها لأنه يكبرنا سنا ؟

قالت صاحبتى : كلا ، ما لهذا أنكروه ، وانما يقال أن فى خلقه وسلوكه ما يريب !

واتفقنا — أنا وعلية — على أن نكتم الأمر عن أصحابنا جميعا ، وذلك بأن نؤلف رفقة من الفتيات وحدهن ، لا أن ننبذ « س » وحده فينكشف ما أردنا ستره .

غير أن هذا التدبير الساذج انهار من أساسه ، حين رأينا « س » — من دون الصحاب جميعا — يضيق بعزلتنا أشد الضيق ، ويلاحقنا فى الحاح مضجر ، ليسأل « علية » ان كان أهلها قد نهوها عن صحبته ؟

ثم لم تك الا أيام معدودات حتى شاع الأمر وذاع ، فلم يبق من اصحابنا من لم يعرف أن والد « علية » قد حرم عليها أن تكلم « س » اثر حادثة ضبطه فى أحد الملاهى المحرمة على طلاب العلم ، حرم الفتى على اثرها من الدراسة اياما وأنذر بالفصل النهائى اذا عاد لمثلها ...

★★★

ومن ذلك الحين ، أطلقنا عليه اسم « المنبوذ » ؟

ثم كان أن انتقل أبى الى الأزهر بالعاصمة ، فنزحنا معه عن بلدتنا الساحلية وخلفنا هناك من خلفنا من الأهل والصحاب .

وكانت تترامى الى من بعيد ، أخبار عن لدات الحداثة وأتراب الصبا ، فأصغى اليها بكل جوارحى . وقلبى يخفق حنينا الى مهد الذكريات .

وقد سمعت ـ فيما سمعت ـ أن المنبوذ ترك البلدة ومضى يطلب العلم فى مكان آخر من ارض الله الواسعة ، فأظهر تفوقا على أقرانه ، وبدأ عهدا جديدا يبشر بمستقبل مرجو .

وأما « علية » فعلمت من أنبائها أنها حجزت فى البيت مخطوبة لمحام شاب ، ثم بلغنى أنها لم تكن قط راضية عن خطوبتها ، وانما رضخت لأمر أبيها الذى اختار لها هذا الشاب ، لا لشىء الا لكونه ابن واحد من زملائه الشيوخ العلماء !

وغابت عنى « علية » فى دوامة الأحداث ، حتى لقيتها فجأة حيث لم أتوقع أن ألقاها !

كانت تجلس فى مكتبة الجامعة ، عاكفة على كتاب بين يديها تقرأ فيه ، فلم تشعر بى وأنا على مقربة منها أدنوا اليها فى عجب وحنو !

وطال بى الوقوف حتى رفعت رأسها فتلاقت أعيننا

برهة ، ثم اندفعنا نتعانق فى شوق ولهفة وانفعال ..

ما الذى جاء بها الى الجامعة من حيث قدرت أنها محجوزة فى « الحريم » تتهيأ للزواج ؟

لكن أباها قد مات ..

وكذلك مات أبو الشاب . فتحللت هى من رباط لم يكن يربط الا الشيخين الراحلين .

استردت حريتها ، وانطلقت تعدو لعلها تلحق بالركب الذى فاتها أو كاد !

وفى وثبة فذة ، يدفعها طموحها ويسعفها ذكاؤها ، أتمت مرحلة التعليم الثانوى والتحقت بالجامعة .

وعاد لنا كل الذى فقدنا من مرح صبانا ، وجددنا العهد الذى خلناه مضى وراح ، وانطلقنا فى ربوع الجزيرة الفيحاء على شط النيل الجميل ، نجمع ما تبعثر من أحلامنا ورؤانا ، ونسترد من قبضة الزمان بعض الذى اختلسه من ذكرياتنا الغاليات !

لكنى ما لبثت أن أدركت بعد أيام أن صاحبتى تطوى هما ، ثم ما كدت أسألها عنه حتى شحب وجهها وقالت :

ـ دعى ذا الآن ، وخبرينى : هل رأيت « المنبوذ » هنا فى الجامعة ؟ انه معى فى الكلية .

قلت : رأيته مرات قليلة عابرة ، وما أحسبه الا نسى فى حاضره الزاهى كل الذى كان .

فشحب وجهها وقالت : كما حسبت أنا ، غير أنى أيقنت أخيرا أنى لم أكن سوى واهمة .

فتساءلت : وأى ضير عليك منه ؟

قالت : لا ضير بعد .. كل ما فى الأمر انه بدأ يتودد الى بصورة مريبة لا تخفى خبثه وخوفه ، فلم أملك الا أن أعتصم بشىء من التحفظ . وشاءت صدفة ـ أقسم لك ألا يد لى فيها

ـ أن تشيع عن « المنبوذ » قالة سوء فى البيئـة الجامعيـة ، فحملنى اصرها وظن أنى التى أذعتها · ومن ثم راح يطاردنى بنظرات تقطر حقدا وغلا ، ثم فوجئت بحملة دنيئة : خطابات غرامية بشعة ، ترسل الى على الكلية ، حيث تفتحها المشرفة على الطالبات ـ كما يقضى النظام المتبع ـ ثم تحيلها الى ادارة الكلية لترى رأيها فى طالبة تتلقى مثل هذه الخطابات

ولم أدعها تكمل قصتها ، اذ استبشعت ما أسمع ، وصحت بها غاضبة :

ـ فما الذى حال بينك وبين التوجه رأسـا الى الأسـتاذ العميد ، والتحدث اليه فى أمر هذه المكيدة الوضيعة ؟

أجابت فى هدوء :

ـ لأنى لم اكن أعلم بها أول الأمر ، وانما أودعتها الكلية فى ملف خاص ، أخذ رصيده من هـذه الرسائل الغراميـة القذرة ، يتضخم الى حد لم تسـتطع الكليـة معـه صبرا ، فأحالتها الى ولى أمرى ، طالبـة منـه أن يقف موقفا حازما منى ومنها !

وقرأت الخطابات ، فاذا فيها وصف لمقـابلات غرامية موهومة ، وتعليق على حوادث سافلة لم تقع ، وتحديد اماكن مريبة للقاء بيننا لم يكن !

وأدركت من اللحظـة الأولى ، أن تلك الحملة الدنيئـة لا تكون من غير « المنبوذ » · لكننى لم أملك الدليـل الحاسم على ذاك ، فالخطابات غير مكتوبة بخطه ، ولا موقعه باسمه ·

ثم ظفرت أخيرا بالدليل ، وكان « المنبوذ » نفسه هـو الذى وضعه بين يدى ·

فلقد مضى ـ فى أحد خطاباته الى ـ يصف بأسلوب صارخ بشع ينضح ضعة واثما ، أثر جرح قديم فى كتفى ، وينسج حوله ـ كاذبا ـ قصة لقاء فاضح · وليس فيمن يعرفنى هنا من يعرف هذا الأثر القديم سوى « المنبوذ » رآه وأنا طفلة ،

حين صحب أمه الى الطبيب يوم مضت بى لاجراء عملية جراحية ، وتخلفت أمى ، ضعفا وحنانا .

فلما ظفرت بهذا الدليل ، بعثت الى « المنبوذ » من يأمره بالكف عن عبثه الأثيم ، والا رفعت الأمر الى الجهات المسئولة .

وكان جبانا فكف ، الى حين فيما أحسب .

ومضى عام وبعض عام ، قل فيها تلاقينا أنا و « علية » اذ شغلت عنى بالاستعداد لنيل درجتها الجامعية ، ثم شغلت من بعد ذاك بعملها الجديد فى أحد المعاهد الراقية . لكنى روعت بعد حين بنبأ اعتكافها فى بلدتها تشكو تعبا فى أعصابها ، فلما ذهبت اليها أعودها قصت على ما غاب من المأساة :

لقد عاد « المنبوذ » يطاردها بأسلوبه الجبان الوضيع ، فملأ دنياها بخطابات غفل من التوقيع ، تشهر بها ، وتقذفها بالتهم ، وتتعقبها الأكاذيب . وكان أحد هذه الخطابات يروى قصة خطبتها الأولى محرفة شوهاء ، فيزعم أن خطيبها أنكر سلوكها فنبذها !

وتلقف بعض صغار النفوس من زملائها ـ الذين طالما ضاقوا بترفعها وكبريائها ـ تلقفوا هذه الرسائل فجعلوا منها مادة شهية للسمر والحديث ، ووسيلة قريبة للكيد لها عند ضعاف الرؤساء الذين يعيشون بآذان غيرهم !

وأثمر السعى الخبيث ثمرته ، فصدر قرار بنقل «علية» الى عمل دون عملها الأول ، لكنها أبت أن تقر هذا الاجراء الظالم ورفضت تنفيذ القرار .

ولم أجد ما أقوله ، فقد كانت المأساة من البشاعة والحطة ، بحيث ألجمت لسانى . غير أنى ـ مع ذاك ـ ظللت أرقبها فى عطف وتأثر وهى تناضل نضالا شاقا مريرا ، عن كرامتها وكرامة فتيات مثلها ، كل ذنبهن أنهن استجبن لنداء التطور ، وخرجن لكى يتعلمن ويعملن !

وانتصر نضالها ، وغلب حقها كيد المبطلين ، فرد اليها اعتبارها وأعيدت الى عملها الأول معززة مكرمة .

لكنا فوجئنا جميعا باصرارها على أن تتنحى مختارة عن العمل ، بعد عودتها اليه بعام واحد .

لقد كرهت أن تعيش فى جو موبوء كهذا ، لا حرمة فيه لخلق أو ضمير ، ولا عاصم فيه لفتاة كريمة من ضعة الأدنياء .

قلت لها : وتعيشين هكذا ، عاكفة ، منزوية ، مغمورة ؟

فصاحت بملء يقينها :

ـ بل أستجيب لنداء قلبى الذى طالما صممت أذنى عنه ، وأصغى الى وحى فطرتى التى طالما وأدتها فى أعماقى ، فآوى الى ظل بيت كريم ، يعصمنى مما لقينا ونلقى فى « السوق » من مهانة وابتذال ، وينحى عنى ذلك الغبار الذى تثيره حولنا ، حوافر وحوش قد ارتدت زى الآدميين ...

وسجلت الحياة أن واحدة من « ضحايا الانقلاب الاجتماعى » قد نجت أخيرا من ضلال الانحراف وهوان الاحتراف وشذوذ الوضع ، فى بيئة موبوءة بالمنبوذين ، ومرضى النفوس والضمائر ..

• أغنية الشاطئ

« انها لم تسمعها قط من فم أحــد قبل اليوم ، غير أمها الغالية ، وقد رحلت أمهـــا الرحـلة التى لايئوب منهـا مسافر ، وغاب صوتها الحبيب عن الدنيا ، ولم يبق منه الا صدى خافق رقيق يملأ قلب ابنتها شجوا وشجنا • فأى سر خفى نقل أغنية الراحلة الى ملاح شريد لا يطمئن به على الأرض مكان ؟ » •

أوى ركاب الباخرة الى مضاجعهم فى اعياء ، لا يكادون يصدقون أنهم نجوا من تلك العاصفة التى دهمتهم فى عرض البحر هوجاء عاتية ، ولبثت ساعات طوالا تعبث بهم عبثـا خفيفا يخلع القلوب ويزيغ الأبصار •

وخيم على الكون سكون هامد ، لا يسمع فيه سوى همس المياه المتعبة ، وأنين الآلات المجهدة وهى تكافح من جـديد لتشق طريقها فى الماء ، بعد أن ظلت النهار كله وأكثر الليل، تناضل الأمواج الماردة وتقاوم هوج الرياح •

وبقى نفر من البحارة يذودون النوم من عيونهم ، ثـم ما لبثوا أن أرخوا أذرعهم فى ضعف واستسلام ، وقد أخـذ الكرى بمعاقد أجفانهم بعد الذى كابدوه من هول وعناء ••

لم يبق منهم سوى ملامح كهل ، أخـذ مكانه عنـد طرف الباخرة الجنوبى ، ساهرا لا يهجع ولا ينام ، كأنما كان موكلا بحراسة كل من هناك ٠

وشجاه الليل الساجى ، فمضى يرنو الى الأفق السـاحر فى رقة وحنو ، ثم راح يغنى للنجـوم المتألقـة ، والأمواه الفضية الحالمة ، والأطياف الرقيقة المحـومة ، والشـاطىء النائى البعيد ٠

وبدا عليه أنه نسى نفسه ، وزمانه ومكانه ، وغاب فى نشوة غلابة آسرة ، فلم يشعر بشبح سيدة تتسلل فى حذر من قمرة قريبة ، وتسرى نحو الصوت مبهورة الأنفاس ٠

ومضى الملاح يغنى :

« يا مجلس الأنس مين ، من بعدنا زارك »

« ومين وقف يا موج ، عالشط يرعالك »

« ومين يا نجم المســا ، ســهر يغنى لك »

« غدر الزمان بنا ، والريح عصف بينا »

« مزق قلوعنـــا وهشم ليــه مراكبنـــا »

وأحست السيدة أن الأرض ترتجف تحت قدميها ، فاتكأت على حاجز المـركب ، تحـدق ذاهلة فى الأمواج الخـافقة ، وتصغى حالمة الى أصداء صوت بعيد ، لم يصافح أذنيها منذ عشرة أعوام ٠٠

أتراها فى يقظة واعية ؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكـون رؤيا منام ؟!

وعاد الملاح يرجع :

« ومين يا نجم المســا ، ســهر يغنى لك »

« غدر الزمان بنا ، والريح عصف بينا »

فتشبثت السيدة بكل ما لها من ارادة واحتمال ، كيلا تسير اليه وتسأله : ممن سمع هذه الأغنية ؟

انها لم تسمعها قط من فم أحد غير أمها الغالية ، بل لعلها لم تسمعها منها سوى مرة واحدة ، عندما ألمت ذات يوم بالشط المهجور ، وحجت الى مراتع اللهو والصبا . وقد رحلت أمها الرحلة التى لا يئوب منها مسافر ، وغاب صوتها الحبيب عن الدنيا ، لم يبق منه الا صدى خافت رقيق ، يملأ قلب ابنتها شجوا وشجنا ..

فأى سر خفى نقل أغنية الراحلة الى ملامح شريد لا يطمئن به على الأرض مكان ؟

وأى قدر الهى قد سار بها الى هنا ، لتسمع هذا الصوت فى عرض البحر ؟!

وتضاءلت مقاومتها ، وأوشكت ارادتها أن تذوب ، فتحركت تخطو نحو الملاح ، لولا أن سمعت ضجيجا آتيا من قلب المركب ، فتلفتت حولها وقد زايلها خدر الحلم ، فاذا عدد من الركاب ، يندفعون نحو سطح الباخرة ليشهدوا جلوة الفجر فى مضيق « مسينا » .

هنالك آبت السيدة الى مخدعها ، وأسلمت نفسها فى ضعف الى شجون الذكريات .

ومضى النهار وهى فى شبه عزلة عما حولها ، تجتر هذه الشجون وتصغى الى اللحن المنبعث من أعماق الماضى من القوة والحياة ، حتى اذا أدركها الليل ونامت من حولها الدنيا ، تناهى اليها صوت يرجع الصدى :

« يا مجلس الأنس مين ، من بعدنا زارك »

« ومين وقف يا موج ، عالشط يرعالك »

« ومين يا نجم المسا ، سهر يغنى لك »

فأصغت لحظة مشوقة ترتجف ، ثم اتجهت نحو الملاح فى

غير حرص ولا حذر ، فالتفت اليهـا التفـاتة عجلى ومضى يخافت بنجواه ، لـكن الكلمـات تعثرت بين شـفتيه بغتة ، وعاد ينظر الى السيدة كأنما قد تذكر شيئا ..

سألته فى رفق : هل أزعجتك ؟

فهم بأن يجيب بلا ، لكن صوته احتبس انفعالا ، ورنا اليها راجيا متوسلا ..

وأدهشها ما عراه ، فانثنت راجعة من حيث جاءت ، وهو يتبعها بعينيه دون أن يقوى على حركة أو كلام ..

حتى اذا غابت عن ناظريه ، تلفت حوله يريد أن يستيقن من يقظته ، ثم وقف بصره بين الماء والسماء ، شاحب الوجه مشرد النظرات .

ولم يشأ أن يبرح مكانه ، بل رقد حيث هـو بعـد أن أجهـده السرى الى ماض موغل فى البعـد ، طالما حسب أنه انطوى فى غيابة النسيان ..

★★★

وكانت هى التى سعت اليه مع مشرق الشمس ، يدفعها شوق ملح الى معرفة تلك الرابطة المجهولة التى تربطها بهذا البحار الكهل ، الذى لا تذكر أنها رأته من قبل .

وألقت اليه تحية الصباح ، فرفع اليها وجهه شاكرا ، ثم وجد صوته أخيرا ، فسألها فى توسل :

ـ معذرة يا سيدتى ، هل أنت من أبناء دمياط ؟ ...

أجابت على الفور :

ـ أجل ، ولكن كيف عرفت ذلك ؟

فكان جوابه أن قال :

ـ اذن فأنت ابنتها ! فيك شبه من أبيك !

وغلبه التأثر ، فأشاح بوجهه عنها ، كيلا ترى دمعة رجل

شيخ ، فى الخمسين من عمره .. والتمست هى أقرب مقعد ، فجلست عليه بادية الضعف والاجهاد .

لقد عرفت أخيرا سر اللحن الحزين ، وقصة الملاح الشريد ..

تذكرت قصة فاجعة ، كانت الأسرة تتناقلها همسا وعلى حذر ، احتراما لأحزان شيخ ثكل ابنه البكر حيا !

كان ذلك الابن قد تعلق بابنة عمته ، لكن شريعة القوم أبت أن تبارك عاطفته نحوها أو ترضى عنها ، اذ كانت الفتاة تعيش فى كنف خالها منذ ماتت أمها وهجرها أبوها . ومن ثم أشفق الخال عليها أن يعلق بثوبها الناصع ادنى غبار ، اذا هو رضى أن يزوجها من ابنه ، بعد ما شاع أمر حبه لها وذاع ..

وزفت الى سواه ، فجن حب الفتى وأفلت منه زمام رشده ، فتربص للزوج ذات صباح ، وهجم عليه يريد أن يذبحه !

وضبط متلبسا بجريمته ، فكان عليه أن يختار احدى اثنتين : اما أن يدعهم يسلمونه الى السجن ، واما أن يهاجر من البلدة الى غير مآب ..

واختار الثانية ..

وسجل بيده اعترافه قبل أن يرحل ، ليكون سلاحا ضده اذا سولت له نفسه أن يعود ..

وتجلد أبوه الشيخ كيلا تخونه أبوته فى موقف الوداع ، وتركه يمضى وهو يغالب عواطفه ، ويدارى أساه فى سبيل ما رآه حقا وعدلا ، ثم انكفأ من بعده محزونا ، فلم يجرؤ أحد على أن يذكر أمامه اسم الطريد .

حتى حانت ساعة الأب ، وعندها فقط ، سمعه أبناؤه يردد الاسم المحرم ، الذى لم يلفظ به مدى اثنى عشر عاما !

وعلم الأبناء أن أخاهم يقيم فى بور سعيد فبعثوا اليه بنصيبه من ثروة أبيه ، دون أن يأذنوا له فى العودة ..

وقيل انه اشترى بذلك المال مركبا يجوب به البحار بعد أن لفظته الأرض ، وكان ذلك آخر العهد به ، فما سمعت الأسرة عنه خبرا .

وطواه الغمار ، فصار على مر الليالى قصة تروى وحكاية يتناقلها السمار .

ولم تذكر القصة شيئا عن الجرح الخفى الذى تركته مأساة الشريد فى قلوب النساء من أسرته ، ولا وصفت وقع ذاك المصير التعس على مشاعرهن الرقيقة وحسهن المرهف ، فلقد توارى هذا كله خلف حجب المداراة ، وان ميزت الأذن رنة الأسى فى أصواتهن المتهدجة ، وهن يروين القصة لبناتهن الصغيرات ، كأنها بعض ميراث الأمهات للبنات !

★★★

تذكرت المسافرة كل هذا وهى فى جلستها على ظهر الباخرة ، وارتدت الى الوراء نحو ربع قرن من الزمان، حيث تعودت أن تأخذ مجلسها فى الأمسيات القمراء الى جانب أمها فى الشرفة المطلة على الماء ، تصغى بكل كيانها الى الصوت العذب الحبيب ، يروى على مسمع من النهر الحالم والنجم الساهر :

« كان ياما كان ! »

ربع قرن من الزمان ؟

ما أسرع ما مضت الأيام ! لكأنما حدث بالأمس القريب، وانها لتكاد تميز بملء سمعها ، نبرات ذاك الصوت الذى خفت منذ أعوام ، وترى بملء عينيها ملامح الطيف الشاخص للراحلة التى غيبها الثرى منذ سنين !

وأرهقها الشجو وهى ترى أمامها بطل المأساة المثيرة التى

سمعتها فى صباها الغرير ، وأحست فجأة بنداء يهتف بها أن تواسى القريب الطريد ، فآبت اليه تقول :

ــ ما أكثر ما ذكرناك !

فاهتز كريشة فى مهب الريح ، وتساءل في ارتياب :

ــ اذا لم ينسونى ؟!

ــ أجابت فى عطف :

ــ كيف وأنت ذا ترى أنى عرفتك مع أنك نزحت عن البلدة قبل أن أولد ؟

فتنهد مرتاحا ، وأشرق وجهه بابتسامة عريضة هانئة ، ثم أغفى مطرقا ، كأنما يريد أن ينام بعدما ألح عليه السهاد .

★★★

وكانت الباخرة فى تلك اللحظة قد شارفت الساحل الايطالى ، وبدأت تستعد لدخول ميناء « نابولى » فترددت السيدة لحظة قبل أن تمد يدها الى قريبها ، مصافحة مودعة .

وسألته قبل أن تمضى :

هل من خدمة أستطيع أن أقوم بها ؟

فترنح الدمع فى مقلتيه ، وهمس فى ضراعة واسترحام :

ــ حسبى أن تذكرونى ، فان هذا يؤنس غربتى ووحدتى ووحشتى ، ويمنح كهولتى نعمة السلوى والعزاء .

وفرق بينهما الزحام فلم تره من بعد ذاك ، وشغل نهارها كله برحلة الى أطلال « بومبى » فلما كان الليل وأوت الى الفندق الساحلى ، خيل اليها أنها تسمع صوتا آتيا من الميناء ، يرتل فى خشوع وأسى :

« يا مجلس الأنس مين ، من بعدنا زارك »

« ومين وقف يا موج ، عالشط يزعالك »

« ومين يا نجم المســا ، ســهر يغنى لك »

« غدر الزمان بنا ، والريح عصف بينا »

« مزق قلوعنــا وهشم ليــه مراكبنــا »

على شط النيل

قصة نهرية ، تهديها الكاتبة الى لداتها وأترابها ، ممن عرفن هذه المنطقة الساحرة ، وشدون بأغانيها ، وأصغين فى طفولتهن الى قصصها وأسمارها ..

تحية وذكرى !

نشأ فى الفضاء الطلق الفسيح ، وأمضى أيامه الأولى لاعبا بزوارق من ورق ، ممتطيا ظهر الماء ، فلما شب عن الطوق ، شاقه أن يغلب النهر ويسبح فيه الى الشط البعيد ، لكن أباه كان يمسكه ، ويروى عليه مآسى ذلك اليم المرهوب .

حتى جاء يوم كل فيه ساعدا الشيخ ، فأسلم الزورق لولده وأقام فى كوخه يريح شيخوخته المتعبة بعد جهاد طويل ..

★★★

كان الفتى الملاح ينهض من فراشه فى خفة قبل أن تشرق الشمس ، فيحمل طعامه فى سلة صغيرة وينطلق الى الشاطىء حيث زورقه الصغير .

ولم يكن له ولا لأبيه غير كوخ فقير قرب النهر ، فيه

حشية من قش الأرز ومصباح ضئيل ، وبعض الأواني مبعثرة هنا وهناك ، ثم ٠٠ هذا الزورق العزيز الجميل ٠

وكان « زكى » مع ذاك الفقر ، سعيدا مرحا راضيا ، لا تكاد الابتسامة الصافية تفارق وجهه الصبى ، وقد شارف العشرين من عمره ، لكنه يبدو كالصبى اللاهى ، لا يعبأ بما حوله ، ولا يفكر الا فى عالمه ذاك المحدود ، وقلما نظر الفتى ـ كسواه ـ الى القصور القديمة المشيدة على الشاطىء ٠ حتى أيقن زملاؤه أنه غرير ساذج ، وأشفقوا عليه من يقظة مفاجئة ، يرى معها الحياة بما فيها من هموم وآلام ٠٠٠

أقبلت الفتيات الى الشاطىء يحملن الأوانى والثياب ، وشمرن عن أذرعهن وسوقهن ، حين نزلن الى الماء ينظفن ما حملن من أوان ويغسلن ما معهن من الثياب ، بينما ترتفع أصواتهن المرحة تارة بالضحك وتارة بالغناء ٠

وكن حريصات على التبكير فى الحضور حريصات على الابطاء فى العودة ، يرينها فرصة مواتية للهو البرىء ، ويلتمسن بين الفتية الملاحين أملهن المنشود ٠ وهكذا طاب لهن أن يغدون الى النهر كل صباح ، يعرضن مهارتهن فى العمل ونشاطهن فى الخدمة ، ويتسابقن فى التزين بما يملكن من حلى براقة ، اشترينها بالنقود التى يكسبنها من الغزل والتطريز وشغل المناديل ٠

وكان ذووهن هم الذين يبعثون بهن الى النهر توفيرا لثمن الماء ، اذ أن كل غدوة من هذه الغدوات ، قد توفر عشرة مليمات ثمن قربتى ماء يحملهما السقاء ٠

وهكذا كانت « دمياط » تشهد كل صباح ، هذا المنظر الفطرى البديع : منظر الصبايا المرحات بثيابهن الزاهية ، ورؤوسهن المتوجة بمناديل بديعة الوشى والتطريز ، وأرجلهن

الصغيرة العارية ، وسيقانهن المستترة بغلالة رقيقة شفافة من الماء ، يملأن الأفق بهجة وضجة وغناء ...

ويكاد الرائى يحسب أنه يشهد منظرا فى احدى قرى الريف ، لولا هذه الأناقة التى لا يجدها فى بنات القرية - وتلك النعومة التى تفردت بها بنات السواحل ، ولولا هذه القصور القديمة المشرفة على النهر ، تكاد تخبرك - لو تكلمت - كم أقامت على مشاهد جميلة رائعة ، وكم رأت من جرائم تسترها المياه وتسدل عليها غطاء من الكتمان ، وكم من جثث استقرت هنالك فى الأعماق فرارا من الحياة ، أو تسترا على جريمة ، أو انتقاما من انسان ...

★★★

ويأبى مرح « زكى » الا أن يشمل أمور العيش أيضا ، فأنت ترى الملاحين وقد غادروا زوارقهم وتفرقوا فى مداخل المدينة من جهة النهر يبحثون عن مسافر ينقلونه الى الشط الغربى حيث يوجد القطار - ولم يكن الكوبرى قد وصل بعد بين الشاطئين - على حين يظل « زكى » فى زورقه لاهيا ضاحكا ، لا يلتمس مسافرا ولا ينشد راكبا . وبينا يصيح الملاحون : هل من مسافر ؟ يرتفع صوت « زكى » مترنما بأغنية له عزيزة ، فتدع الصبايا كل ما بأيديهن ، ويصغين الى نغماته وهى تجلجل فى الفضاء ، فتصفق لها الأمواج وتخفق بها الأمواه ويرجعها النسيم .

ولقد يحدث أن يبدأ الفتى فى أغنيته - وله فى ذلك ميعاد يحدده كل يوم ظهور وجه يرقب مطلعه - فيتمهل المسافرون ويقفون على الشاطىء الغربى منصتين فى شجو حالم ، حتى يوقظهم صفير القطار من نشوتهم فيسرعون اليه وفى أعينهم طيف الفتى الأسمر فى سترته البحرية الزرقاء ، وفى أسماعهم صوته الجميل يغنى :

يسعد صباح الحبايب

دا الهوى أصل العجايب
يا نازلين البحر تملم
أنا مستعد أبعت ركايب
واجب علينا نصبح
يا قمر بين الكواكب :

فتضطرب الفتيات وتتطلع كل منهن الى زميلاتها فى تساؤل وارتياب ، عدا واحدة منهن كانت تتشاغل بما بين يديها منحنية على المياه ، لتخفى وجها اصطبغ بحمرة قانية ، شبيهة بتلك التى تلون بلح النخيل بعد أن ترويها مياه النيل فى موسم الفيضان ..

لقد كانت « عائدة » تعلم أنها التى يغنى لها الفتى ويعنيها حين ينادى « يا قمر بين الكواكب » ولقد نما حبهما فى رعاية النهر المبارك نقيا كالهواء ، رحبا كالفضاء ، صافيا كالماء ، جياشا كالموج وكثر لقاؤهما هناك فى الصبيحات الباكرة ، يستقبلان الأشعة الأولى راجفين مبتهلين ، يغنى لها وحدها أغنيته المفضلة ، فتصغى اليه مبهورة الأنفاس خافقة القلب ، حتى تترامى اليهما أصوات الغاديات الى النهر ، فتتشاغل « عائدة » بغسل أوانيها ، ويضرب « زكى » بمجدافيه فى عرض النهر ، وصوته يجلجل فى الفضاء شجى النغم :

واجب علينا نصبح
يا قمر بين الكواكب

★★★

ثم انقطع شهورا لا يرى ...

وانزوى زورقه فى ثنية من الشط تغشاه كآبة ووحشة ، وكان أبوه الشيخ يحمل بقايا كيانه المتداعى ، ويمضى الى الشط سعيا وراء الرزق ، فاذا وهنت قواه أغفى فى ركن من الزورق صامتا يجتر أحزانا مجهولة لا يعرفها سواه .

ونسجت حول غياب الفتى أقاصيص :

قيل : عشقته احدى جنيات البحر من بنات ملوك الماء فاستدرجته ومضت به الى مملكة أبيها فى أعماق اليم !

وقيل : تعلق به أحد الشيوخ من تجار الشام الذين يفدون الى « دمياط » فى مراكبهم الشراعية ، يحملون الزيت والخشب والحرير ، ويعودون محملين بالأرز والسكر والمصنوعات المحلية . وكان هذا الشيخ الشامي ــ فيما تذكر الرواية ــ عاقرا ، فمازال بالفتى الملاح حتى أغراه بالرحيل معه ، واعدا اياه أن يجعله الوارث الوحيد لتجارته الواسعه وأملاكه العريضة .

وقيل : بل أمسكته أرملة ثرية عجوز كانت تعيش وحدها فى أحد هذه القصور العتيقة المشرفة على النهر ، وقد مات زوجها منذ عشرين عاما وترك لها ــ مع الثراء الفاحش ــ غلاما نزح الى الغرب حين بلغ مبلغ الرجال ، وبقيت الأم لأفاعيل الفراغ وتصاوير الوهم وتهاويل الوحشة وأكاذيب السراب وأساطير الأشباح ... وأراجيف الناس !!

وقيل ... وقيل :

ولم تكن بنات الشط يدرين أى هذا الذى قيل ، حق ، وأية خيال ...

★★★

وكثر تخلف « عائدة » عن الغدو الى النهر ، فلم تعد ترى مع أترابها الا فى فترات قليلة متباعدة ، وبدا عليها شحوب وهزال ، وزايلها ما عرفت به من مرح ونشاط .. وكانت اذا جاءت الى الشط ، توجهت من فورها الى الزورق المهجور ، فقبلت يد الأب الشيخ ثم أقبلت تعينه بقدر ما تسعفها قواها الواهنة : تنظف الزورق ، وترتب حشاياه ، وتغسل الأغطية ، وتملأ « القلة » ثم تكر راجعة ، بطيئة السير متعثرة الخطو تترنح ضعفا واعياء ...

الى أن حبستها الحمى فى دارها فلم تخرج الا الى القبر. وتحامل الشيخ فشيعها الى مأواها الأخير ، وعاد من بعـــدها يبكى ...

★★★

ثم كانت المفاجأة الكبرى ...

رئى « زكي » بعد أن ماتت « عائدة » بأيام معدودات ، يدب نحو الشط واجما يسأل عن هواه ، فلمـا علم أن كل شيء قـد انتهى دلف الى زورقه سـاكنا لا ينطق ، واجمـا لا يتحرك ...

وأحاط به رفاقه يفتقدون فيه الصبى الغرير الضاحك الذى عرفوا ، فلقيهم منه مخلوق آخر : مستنفد الحيوية ، بادى الهزال ، منقبض الأسارير ...

وتسامعت الفتيات بنبأ عودته ، فتسللن الى النهر واحدة فى اثر أخرى ، تحدوهن أمان أرهقها الانتظار ، وتترنح على شفاههن كلمات حفظنها ـ من كثرة ما رددتها ـ تحية للعائد العزيز ..

وسعى معهن طيف « عائدة » فى هزاله وضعفه ، يلتمس اللقاء نظرة مودعة على أطلال هواه الذى طواه الزمن ..

وقد رق جمود الفتى لحظة وهـو ينقـل بينهن نظـرة متسائلة ، ثم ما لبث بصره أن غاب عنهن وراح يعدو فى أسى مجنـــون ، وراء الطيف الذى ولى وغاب . فتراجعت العذارى فى خيبة واستحياء ثم عدن من حيث جئن ، واجمات مطرقات كأنهن قد شيعن عزيزا مات ...

وقال سامر الحى فى تلك الليلة :

« ... وهكذا أطلق الفتى من سجن الأرملة العجوز ، بعد أن أقام فيه ما أقام أسيرا لا يملك سـبيلا الى الفرار ، حتى عاد الابن من بلاد الغرب فأنكر مكان الفتى من أمه ،

وطـرده من قصر الآباء والجـدود ، ثم أطلق فى أثره نذر الشر وصيحات الوعيد ...

وفرغ لأمه يسقيها كأس العذاب فى سجنها الرهيب ! »

★★★

وحمل نسيم الصبح على أجنحته الندية الناعمة ، نغمات الأغنية القديمة ترجعها فى الفضاء العريض قيثارة خافتة حزينة ملؤها نحيب وشـجن ، فعـدا الرفاق الى صـاحبهم يتساءلون ، ونفضت بنات الحى أيديهن من عمـل الصباح وهرعن الى النهـر ، وتطلعت من وراء السـتائر السـميكة المسدلة عـلى احـدى نوافذ القصر العتيق ، عينان جامدتا النظرات ..

ولكن الأوان قد فات ...

تـوارى « زكى » تحت المـاء ، وعبثا حاول رفاقه أن ينقذوه فقد تشبث بالموت وتشبث الموت به ..

وبسطت الشمس أشعتها الدافئة على المياه المضطربة اثر محاولات الانقاذ ، ثم هدأ الموج ، وحدقت الجدران ـ جدران القصور المطلة على النهر ـ لتقرأ اسـم الغـريق الجـديد وتضمه الى الأسماء التى وعتها منذ شيدت حارسة على النهر . ولم يبق من أثر للفتى الا بقيـة صـدى ممزق من أغنيتـه النائحة ، ثم هذا الزورق يترنح من بين أكف الموج ، ويكاد يتبع صاحبه الى جوف اليم ...

وسكن كل شىء بعد حين ..

وانتشرت الزوارق الرشيقة عـلى سـطح المـاء تحمل الركاب بين الشاطئين ، على حين كانت رؤوس النخل الباسقات فى ضاحية « السنانية » ، تنحنى فى بطء ووجوم على شط النيل الغربى ، كأنها تحيى الفتى الشهيد ..

• سر ربيعها

لم يكن ثمة شيء مما نسجت أوهام القوم حولها وانما كان القلب سرها الساحر ورقيتها الخفية ، فلما اختطف البحر زوجها الحبيب ، تجهم الكون المشرق ، ومضى الربيع مع الحبيب الذى مضى .. ولن يعود !

هى ذكرى بعيدة لعهد طواه الزمن ، ونسج عليه الدهر طبقات متكاثفة من الأيام والليالى ، فلا تكاد رؤاه تلوح الا مدثرة بالغيوم ملثمة بضباب السنين ، لكنني مع ذلك لا أكاد ألمح اشراقة الربيع الأولى تنبثق من ثنايا سحب الشتاء ، حتى أتمثلها أمامى سافرة وضاحة ، نابضة بالقوة والحياة ، كأن لم يكر عليها الزمن ، ولم تغيبها غمرات الأحداث ..

★★★

عرفتها شابة ندية ، فى رونق الصبا ونضرة الربيع ، تتوثب الحياة فيها وتفيض على كل ما حولها ..

وكنت فى غرارة الحداثة لا أعرف مقاييس الجمال ولا أحدد مقومات الحسن ، لكنى لم أكن أتردد فى الحكم لها على كل نساء الحى ، حين كنا نجلس للسمر فى الأمسيات القمراء على شط النيل ، ونفاضل بين من نعرف من النساء .

ولم أصغ الى ما كانت أترابها يتحدثن به عن عيوب خلقتها،
وان لم ينكرن هذه الحيوية العجيبة التى كانت تستمتع بها
دونهن • وكن يرددن أسطورة شائعة ، تتناقلها العجائز
ويؤكدن فيها أن لصاحبتهن معرفة بأمير من مملكة البحر ،
حمل اليها بعض أعشاب غريبة من أعماق الماء ، وناط بها
تميمة سحرية تديم ربيعها وتحمى شبابها من أفاعيل الزمان،
وتقيه من الذبول والجفاف !

لم يكن يمر على يوم دون أن ألقى « نادية » •• فلقد
حرصت على ان أزورها كلما أذنت لى امى فى الخروج لبعض
شؤوننا ، فأمضى هناك لحظات مختلسة ، اصغى فى شغف الى
ما كانت تروى لى من نوادر القصص وعجائب الاساطير •
وكنت ـ على صغر سنى ـ أحس كأنها تبث الحياة فيما
حولها ، وتبعث فيضا من الحركة والنشاط فى الكون الجامد
والجو الراكد • ولم تكن أمى تسىء الرأى فى « نادية » ،
ولا كانت تحملنى على كرهها او احتقارها ، الا انها أرادتنى
على أن أحترم عرف القوم وأتجنب لقاءها ، وان كانت ـ فى
الوقت نفسه ـ تحرص على أن تدفع عنها ألسنة السوء
ما استطاعت •

ولعل أخوف ما كانت تخافه أمى ، أن أغرى يوما
بمصاحبة «نادية» فى رحلاتها النهرية ، اذ تعودت ان تخرج
ابان الربيع الى عرض النهر بين آن وآن ، فى نزهة قصيرة
تدعو اليها من تشاء منا • ولقد سمعت بعض ما تهمس به
الجارات فى أمر هذه النزهات الموسمية الغامضة •• سمعت
أنها تقصد الى نقطة معينة فى وسط النهر ، حيث تحدق لحظة
فى الماء فيخرج اليها أمير البحر ويرقيها رقيته السحرية ،
ثم يودعها الى لقاء ، ويغطس الى عالمه السفلى •••

وأحسبنى شعرت بما يشبه الخوف من هذا الذى قيل ،
لكنه كان خوفا مشوبا بأشواق التطلع والفضول ، حتى
دعتنى «نادية» الى مرافقتها ذات يوم فلبيت مشوقة مسحرة،
يفتننى هذا « المجهول البعيد » بغموضه وسره • وساعدتنى

المقادين فى اليوم الموعود ، اذ كان أبى غائبا فى الحجاز ، وكانت أمى تمضى سحابة نهارها فى رعاية جدها المريض . ولم يكن ايسر على من أن أدبر أمرى مع شقيقتى الكبرى ، ومع ربيبة لأمى كانت ترعانا فى غيبتها .

★★★

ولم أذق طعم الغمض فى ليلتى تلك ، من فرط التشوق والانفعال . حتى اذا لاح الفجر تسللت من البيت أسترق الخطا على حذر مبهورة الانفاس ، فلما شارفت مرسى القارب على الشط الشرقى للنيل ، لمحت وجه « نادية » المضىء يتألق فى ضباب الغبش ، كتألق نجمة الصباح ، فدلفنا الى الزورق فى سكون حالم ، وراح النوتى يضرب بمجدافيه وهو يترنم هامسا بأغنية عذبة من أغانى الشط .

وبدت « نادية » مخدرة الحواس ، كأنما تغشاها سنة من النعاس ، على حين ظللت أنقل بصرى بينها وبين الماء فى يقظة واعية وتنبه حاد مرهف ، وكلما خفق الموج سرت فى كيانى رعشة ظاهرة ، وخيل الى أن احدى الموجات لن تلبث أن تنحسر عن أمير عجيب ، له رأس انسان وجسم سمك ، وقد ارتدى غلالة شفافة من الماء ، وعلى رأسه تاج مرصع بصنوف من اللؤلؤ والمرجان وغيرهما من جواهر مملكة البحر !!

لكن الزورق انساب فى طريقه حتى رسا على بقعة منعزلة فى الشط البعيد ، دون أن تلوح لائحة من هذا الأمير الساحر ، بل دون أن تتحرك « نادية » أو تزايلها غشية نشوتها ، حتى اذا سكنت حركة المجدافين ، انتفضت فجأة ووثبت الى الشط فى تهلل وانطلاق ، ثم راحت ترتاد البرارى ونحن وراءها قد مسنا قبس من وهج نشاطها ، وسرى فينا شعاع من حيويتها . فاندفعنا نثب ونصيح ، ونجمع الأزهار البرية التى نبتت من جوف الأرض حين أحست دفء الربيع ، ونطارد الطيور التى بدأت تفد على

المنطقة المهجورة ، كأنها طليعة موكب هذا الربيع ، أو كأنها منه على موعد .

ونال منا الاجهاد ، فسارت بنا « نادية » الى ظل نخل باسقات ، تحف بضريح « سيدى على الصياد » : ولى من أولياء الله الصالحين ، تبدت كراماته « لنادية » غير مرة ، فمنذ زارته أول مرة مع صواحب لها ، وهو يطيف بها فى الرؤيا فى مثل ذاك الموسم من كل عام ، ويدعوها الى زيارته ، فتسعى اليه مستجيبة ملبية ، وتعود من بعد الزيارة وقد أحست أن أعباء الأيام تخف رويدا رويدا ، وأن الحياة تبدو أوفر نضرة وأبهى اشراقا .

***

كانت هذه هى قصة رحلة الربيع ، لم تحاول « نادية » أن تتكتم أمرها أو تخفيها على أحد ، فما كان يعيبها أن تعتقد فى كرامة ولى صالح ، وأن تزور ضريحه تبركا . لكن النسوة ما يكدن يسمعن هذا ، حتى يلوين رءوسهن ويقسمن أنهن رأينها رأى العين ، تمد يدها فى الماء وتتناول الأعشاب العجيبة والتميمة السحرية ، من ابن ملك البحر !!

ولم يغن عن « نادية » أمام هذا الاصرار العجيب ، شهادة مثلى بأنها لم تمس الماء فى رحلتها ، ولا وقفت عند بقعة بعينها لتحدق فى أعماقه ، فقد كنت فى نظر هؤلاء النسوة غريرة ساذجة ، هيهات لها أن تدرك أعمال السحرة وحيل الجان ! وهل كان يعجز أمير البحر ـ حين رآنا فى صحبتها ـ أن يرتدى (طاقية الاخفاء) أو يتقنع بقناعه السحرى فيتراءيا هما الاثنان دون أن نحس أو نشعر ؟ أو كان يعجزه التلويح أمامنا بزعانفه ، فينسج على أعيننا غطاء خفيا لا نبصر من خلاله شيئا مما يدور حولنا ؟

***

وهيأت الظروف لنسوة الحى فرصة مواتية للخوض فى أخص شؤون « نادية » : كان زوجها يشتغل بالتجارة ويقضى

أكثر العام فى تنقلاته على مركبه الشراعى بين دمياط وسواحل الشام ، وكثيرا ما كانت السفرة الواحدة تستغرق شهورا ذات عدد ، ولم يضايقه انطلاق زوجته ، ولا أصغى الى أراجيف القوم عنها ، بل لعله استطاب أن تجد فى رياضتها المحببة ما يؤنس وحشتها فى غيابه ، اذ كان يعرف حسد النسوة لها وغيرتهن منها • على أن القوم زعموا أن « نادية » (عملت له سحرا) مستعينة بمن تعرف من جن الماء ، فألقوا على عينيه غشاوة ، وجعلوا فى أذنيه وقرا !!

هكذا شاعت الشائعات عن « نادية » ونسجت حولها الأساطير ، وهى ماضية فى طريقها بادية الزهو والترفع ، ساحرة الفتنة والبهاء ، تحذر النساء الدنو منها حتى لا تطفئهن بنور شبابها العجيب النضر ، وتردهن – على الصبا – عجائز مكتهلات !

★★★

ونزحت مع أسرتى عن « دمياط » فغبت عنها أعواما طوت الكثير من الشخوص والأطياف ، وغيبت ذكرى ما كان من أحداث • على أنى ما فتئت أشعر بالحنين الى ملاعب الحداثة ومغانى الصبا ، وكان طيف « نادية » يلوح لى كأنه حلم من أحلام الربيع ، فأراها فى غفوة الذكرى تجمع بواكير الأزهار البرية ، وتطارد الأسراب الأولى من الطيور المهاجرة ، وتتبدى كابتسامة وضاءة على وجه الكون ، حين يتجدد شبابه بعد تجهم الشتاء •

★★★

حتى كان صيف عام ١٩٤١ وقد ذهبت الى «رأس البر» أصطاف ، وقالت لى أمى يوم سفرى وهى تشرق بدمعها :
– لا تنسى أن تزورى بقية أهلى وصواحبى فى دمياط •
فعانقتها وقد غلبنى الشجو والتأثر ، واستقبلت طريق الشمال وأنا أحس أن كل خطوة فيه ، تدنينى من طفولتى ، وترجعنى الى ذلك الماضى الخلى العزيز !

وهناك رأيت « نادية » . عنـد اللسـان ، حيث مصب النيل فى البحر .

شد ما غيرها الزمان !

جف نداها ، وذوى الشباب الذى ظن أنه معوذ برقية من الجان !

وخبت الحيوية التى امتنعت طويلا على أحداث الدنيـا وأفاعيل الدهر ...

وانطفأت الشعلة التى قيل أنها مسرجة بزيت مسحور ، لا تطفئه العواصف ولا تغلبه الأعاصير ...

ومضى الربيع الزاهر الذى أرجف المرجفون أنه أبدى خالد ، لا تمضى به دورة الزمن الى خريف فشتاء !

قلت لها وأنا أدير عينى فى وجهها الشاحب وكيانهـا الذابل المدثر بالسواد :

ـ ما حسبت أنى ألقاك هنا !

فحدقت هنيهة فى الغرب ثم سـألت فى جمـود تشوبه قسوة :

ـ وأين انتظرت أن أكون ؟

فرنوت الى النهر حينا وقد ضم جانبيه على الأمواه حالمة وسنى، ثم تطلعت الى الأفق البعيد حيث كانت البرية تزدهى بثوب موشى من أعشاب الربيع .

ثم لم أجد ما أقوله ، فأمسكت لا أجيب ...

وكانت تتـابعنى بنظرة جامدة وأنا أطـوف بمعـالم ماضيها المندثر ، فلما انتهى بى الطـواف ، غشـيتها كآبه مغبرة ، ثم ضحكت ضحكة منتحبة وقالت وهى تشير بأصابعها النحيلة الى البحر :

لقد غدر بى هذا البحر ، وسلبنى سر الحياة !

فنظرت اليها مرتابة ، على حين اسـتطردت هى قائلة : لا تنكرى الذى تسـمعين ، فقـد والله آمنت بالذى زعمتـه

الزاعمات من أن أحد أمراء البحر غار من زوجى فجذبه الى أعماق اليم ، ووكل به وحوش الماء !!

فسألتها فى رفق ومواساة :

ـ وأنت ••• ماذا صنعت بنفسك ؟

فسرت فى جسمها الهزيل رعدة أزالت جمودها ، وأجابت وهى تغص بأشجانها :

ـ ما صنعت بنفسى شيئا •• وانما ذاك من صنع الأيام والليالى •

وأطرقت لحظة تتماسك ، ثم عادت تقول :

« كنت لا أعرف الدنيا الا ربيعا أزهر وابتسامة مشرقة ، حتى مضى زوجي الحبيب في احدى سفراته الى الشام ، وعاد مغتبطا بما ربحت تجارته ، متلهفا على رؤياى، حالما باللحظة الهنيئة التى يفرغ فيها بين يدى ، ما وسق به مركبه من طيب الفاكهة ، وغالى العطور ، وفاخر الحرير •

ولكن حال بيننا الموج ، فثوى فى قاع اليم ، تنهشه سباع البحر •••

وكنت ـ عندما حل موعد أوبته من سفرته تلك المشئومة ـ واقفة على الساحل ، أرقب عودة الغائب وبى ما يشبه الجنون من فرط اللهفة والشوق ••• ، فلما لاحت لى من بعد ، شراع خافقات ، وضعت يدى على قلبى وأنا أشعر بدنو الكارثة : رابنى أن زوجى الحبيب لم يبعث الى تحية الشراع من عرض البحر كما عودني في سفراته السابقات ، وألفيتنى ـ دون وعى منى ـ أغمض عينى لكيلا أرى رفاقه ينزلون الى البروليس هو بينهم !

وأعفيتهم من تجشم مشقة ابلاغي النبأ الرهيب ، فقد سبقهم قلبى وأنبأنى به !

ورجعت جامدة العينين الى عشنا ، أنعى الشهيد الغالي الى كل ما في هذه الدنيا التي شهدت سعادتنا الراحلة .

ثم وقفت أطل على الماء ، فتمثل لى فقيدى وهو يغالب الموج ويصارع الأنواء ، وخيل الى أننى أسمع هتافه باسمى مختلطا بحشرجة المحتضر وزئير الموج وهزيم العاصفة ، ثم ما لبث هذا الكون المشرق أن ظللته غيوم متراكبة وسحب غبراء ، لم أرها تنجلى عنه حتى ساعتنا هذه !

هنالك شعرت ــ لأول مرة في حياتى ــ ببرد الشتاء يهز أوصالى ويثلج دمى ، ومن ذلك الحين وانا منزوية فى ركنى هذا ، مقرورة مرتعدة ، أسائل نفسى وأنا أقلب بصرى بين أطلال عالمى المنهار : أكانت حياتى الأولى رؤى منام ؟ أكانت وهما تبدد مع الأيام ؟ أم لعلها لم تكن الا كما قالت عجائز الحى ، سحر ساحر من الجن ، غضب على فمسنى مسة ملعونة، جففت عودى الرطب الندى ، وردت ربيعى الضاحى البسام شتاء عاصفا كئيبا ! »

هممت بأن أقول لها شيئا يعزيها ، لكننى لم أكد أرجع البصر كرة أخرى الى هيكلها الذاوى المصفر ، وبشرتها الذابلة المغضنة ، وشعرها الجاف الأشيب ، حتى تعثرت الكلمات على شفتى ..

★★★

وسألتنى أمى حين رجعت اليها آخر الصيف :

ــ هل طفت بربوع صباى وزرت الأهل والأصحاب ؟

ــ أجل يا أمى ، وزرت « نادية » !

فوجمت وجمة لم يطل مداها ، ثم رجعت تسألنى :

ــ أو ما تزال على العهد بها فى ربيعها الدائم ، فتية لا تهرم ندية لا تجف ، ناضرة لا تذبل ؟

أجبت وأنا أمسك عبرتى :

ـ بل عدت عليها العوادى ، فأمست قطعة حزينة كابية من شتاء الحياة ..

قالت وهى لا تكاد تصدق سمعها :

ـ ولكن كيف ؟ لعلها أخبرتك بسرها الغامض المجهول، بعد أن تخلى عنها ذلك الساحر الذى منحها ـ فيما زعموا ـ الربيع الخالد ، والحيوية الأبدية !

قلت : كلا يا أمى لم تخبرنى هى ، لكننى عرفت كل ما هناك .. لم يكن ثمة شىء مما نسجت أوهام عجائز الحى ، وانما كان « القلب » سرها الساحر ورقيتها الخفية ، فلما اختطف البحر زوجها الحبيب ، تجهم الكون المشرق ، ومضى الربيع الناضر مع الحبيب الذى مضى .. ولن يعود !!

★★★

وأدركت بغتة ـ حين لمحت الدموع تترنح فى مقلتى أمى ـ أنى هجت شجونها ونكأت جراحها ، وذكرتها بمثوى أمها فى أعماق النهر ..

هنالك طويت خبر « نادية » ومازلت حتى اليوم أطويه أو أحاول ، الا أننى لا أكاد ألمح بسمة الربيع الأولى تشرق فى وجه الحياة ، حتى أذكر تلك التى عوذها « قلبها » برقية ساحرة أطالت ربيعها !!



• وردة

ولم ندرك مدى ما تشير اليه كلماتها حين ودعتنا .. ثم كبرنا من بعد ذاك ونضجنا ، فوالله ما مررنا يوما بالقصر المهجور الا ألقينا عليه نظرة ملؤها الشجو والشجن ، وتمثلنا « وردته » الذابلة وهي تودعنا ثم تلم جراحها وتمضى ..... الى الدير !

كنا نسميها « وردة » وأما اسمها الحقيقى فقل منا من كانت تعرفه اذ ذاك . وما أحسبنا شعرنا يوما بحاجة الى معرفته ، فقد كان يكفينا هذا الاسم الجميل نناديها به فتلبى النداء وتخرج الينا ملأى اليدين بأصناف ــ لا عهد لنا بها ــ من فاخر الحلوى وشهى الفطائر .

ولم تكن « وردة » من لداتنا وأترابنا ، ولا كانت تنتمى الى البيئة التى أنبتتنا أو تعرف نوع الحياة التى نحياها فى دور أهلينا ، وانما نشأت فى قصر ناء ، يقوم منفردا على شط النيل فى احدى ضواحى بلدتنا الساحلية الجميلة ، ويجرى من تحته النهر الميمون ، وتحف به جهاته الثلاث ، مروج وبساتين ومزارع ، مما يملك صاحب القصر .

وفى الحق ، لم تكن عزلة القصر وحدها هى التى باعدت بيننا وبين أهله ، بل كانت هناك فوارق أخرى من الدين والعادات والمستوى الاجتماعى ، تضرب بيننا وبينهم بسور لم نفكر يوما فى اقتحامه •

وهكذا نشأنا لا نرى « القصر » الا من بعيد اذا مررنا به فى احدى رحلاتنا النهرية ، ولا نعرف عن أصحابه الا أنهم قوم من النصارى ، واسعو الثراء ، وفدوا على الأقاليم منذ عهد بعيد ، واشتغلوا بالزرع والتجارة حتى غدوا من أكبر ملاك الأراضى وأغنى أصحاب الضياع •

★★★

وحدث ذات ربيع أن ذهبت مع بعض صواحبى نرتاد الشطوط بحثا عن وريقات التوت البازغة مع مطلع الربيع، كى نغذو بها « دود القز » الذى كنا نربيه مشغلة وهوايه ، فقادتنا أقدامنا على غير هدى ، الى قريب من « القصر » وأغرانا عبث الصبا فى أن نفكر فى اقتحام سور البستان المحيط به ، اذ كانت تقوم فى أطرافه بضع شجرات من التوت ، خيل الينا أن روح الربيع سرت فيها قبل سواها ، فبزغت وريقاتها الخضراء مبكرة ، كأنما نالها من نعمة القوم شبع ورى لم تظفر بمثلها الأشجار الأخرى التى ما تزال عارية جرداء ، كتلك الأكواخ الفقيرة التى بجوارها !

وتسلقنا السور فى حذر ، ثم تسللنا الى البستان ونحن نتلفت ذات اليمن وذات الشمال ونمسك أنفاسنا خشية أن تنم علينا • واتجهنا الى شجرات التوت وما نبغى سوى حفنة من وريقاتها ، غير أنا ما لبثنا أن وقفنا مأخوذات ، نقاوم اغراء هذه الثمار النادرة الشهية التى ألفيناها ترصع البستان ، وقد أينعت وطاب قطافها •

وفيما كنا فى وقفتنا تلك نرنو الى الثمار المحرمة فى رغبة ممزوجة بالخوف والقلق ، فوجئنا بمرأى شابة حسناء

فى ربيعها العشرين ، تتجه الينا فى خطوات متئدة ، ووجهها يشرق بابتسامة ملؤها الرقة والايناس والعطف !

وكنا جديرات بأن نهتز فرقا ورعبا ، وأن نتمثل المصير المخجل الذى ينتظرنا ، اما من أهل القصر ، واما من أهلينا . لكن ابتسامة الفتاة بددت خلع قلوبنا من رعب وشك ، وأنستنا الموقف الصعب الذى كنا فيه . سألتنا فى رقة :

– أى هذه الثمار أقدم اليكن ؟ أم لعلكن تستطبن قطفها بأيديكن ؟

قلنا فى خجل :

– بل تكفينا وريقات التوت ، فقد أوشكت ديدان القز الصغيرة على الهلاك جوعا ، وليس فى المنطقة كلها شجرة مخضرة ، كأشجاركم هذه !

فضحكت ملء قلبها وهى تهتف :

– من استطاعت منكن أن تتسلق احدى شجرات التوت ، كان لها ما شاءت منى ، ومن البستان !

وهكذا أغرتنا بسباق طريف ، تدافعنا فيه نحو الأشجار متسلقات ، وكنا قد مرنا على ذلك ، لطول تجوالنا فى الشطوط .

ودعتنا ربيبة القصر بعد هذا الى ضيافتها فى عش جميل أنيق ، أقاموه من جذوع النخيل وعرشوه بمتسلقات الأزهار . وهناك حشدت لنا الشابة ما شاء لها كرمها وثراؤها من حلوى وفاكهة ، حتى اذا آن لنا أن ننصرف مع مغرب الشمس ، صحبتنا الى الباب الخارجى مودعة !

لكنا لم ننطلق لسبيلنا ، بل وقفنا مترددات ، نسائلها :

– هل نمضى دون أن نعرف اسم الصديقة الكريمة ؟

فتبسمت ضاحكة من قولنا ، وساءلتنا بدورها :

ـ أى اسم ترينه أنسب لى ؟ انظرن حولكن ، واخترن لى اسما من هذا البستان •

فهتفنا فى صوت واحد : « وردة » •

★★★

هكذا كان تعارفنا الأول •••

وألفنا بعد ذاك أن نسعى الى القصر مرة كل أسبوع طوال موسمى الربيع والصيف ، فلا نكاد ننادى : «وردة» ، حتى تطل علينا مشرقة باسمة ، ثم تسرع الينا فنمضى فى ضيافتها ساعات الأصيل •••

وينتهى الصيف ، وتفد ريح الشمال مع طلائع الخريف ، فتذبل الورود ، وتجف أوراق الشجر ، وتنزح « وردة » وأهلها الى الجنوب ، ونكف نحن عن رحلاتنا البعيدة ، فلا نعود نلم بالقصر المهجور •

ولكن بشائر الربيع ما تكاد تهل ، حتى نشد رحالنا الى الضواحى والشطوط ، حيث نلقى « وردة » فى انتظارنا ، لتتحفنا بما جاءتنا به من خيرات الجنوب ، وتحدثنا عن بعض ما رأت هناك !

★★★

وذات يوم ألفينا القصر قائما على قدم وساق ، والخدم والحشم يروحون ويغدون مهرولين متهللين • ولما سألنا عن « وردة » قيل لنا انها تتهيأ ليومها السعيد الموعود •••

غير أنها ما لبثت أن هرعت الينا قبل أن تستكمل زينتها ، وقادتنا ـ كما عودتنا ـ الى الكوخ الجميل ، برغم الحاحنا عليها أن تدعنا ننصرف ، لكي تفرغ لشأنها ••

وجلست « وردة » تحدثنا عن خطيبها ، ذاك الذى جاءها يسعى من أقصى الغرب ، وكان قد رآها مرة واحدة فى باريس ، فتعلق قلبه بها ولم يستطع أن ينساها •

وكان كيانها ينتفض من فرط النشوة ، وهى تصف لنا لقاءهما الأول فى حفلة تنكرية ، لم يعرف فيها من هى ولا من قومها ، ولا كان له علم بمبلغ ثرائها ، وانما تعلق بها لذاتها ، مجردة عن الحسب والنسب ، وعن العقار والنشب ، على حين كان كل الذين يحومون حولها من اهل وطنها ، انما يحومون حول نبع الثروة هائمين ظماء ...

وقد تأبت عليهم جميعا ، وكرهت لنفسها مهانة الشعور بأن ذاتها مهدرة ، لا تدخل فى حساب راغبى الزواج منها فى كثير أو قليل !

وأقامت الأعوام تنتظر ، حريصة على ألا تخدع بأقوال من يزعمون لها أن ثروتها لا تعنيهم قط ، مؤثرة ان تعيش عمرها راهبة عذراء ، على أن ترضى بأن تهب نفسها لمن يريد مالها فحسب !

وكانت بحيث تنتظر طويلا ، لولا أن ساق الله اليها هذا « الغريب » الذى وضع قلبه بين يديها ، وهو يجهل كل شيء عن ظروفها !

وكنا نحن من صغر السن ، بحيث لم نستطع أن ندرك مغزى كلمات « وردة » ، غير أنا ـ مع ذاك ـ أصغينا اليها بكل جوارحنا ، كما لو كانت تقص علينا احدى القصص . ولعل الذى عنانا مما سمعناه ، أن « وردة » سعيدة بحب خطيبها الشاب ، فقد كانت كل جارحة فيها تهتز من فيض السعادة والرضى ...

ونسينا أن هذا الغريب قد يمضى «بوردة» بعيدا بعيدا ، الى حيث تفصلنا عنها جبال وبحور ورمال !

وسرنا أن « وردة » وعدت أن تدعونا الى حفلة عرسها القريب ، وقالت انها سوف تجهز لنا ثيابا حريرية بيضاء ، وتيجانا من زهرات الفل ، وشموعا مضاءة !

وجعلنا نحلم بليلتنا المرتقبة فى القصر المسحور ، وقد

خيل الينا أن « وردة » ليست سوى ملاك شبيه بهذا الذى قاد « سندرلا » الى قصر الأمير !

★★★

ودنا الموعد ..

وتعلقت « وردة » بنا لكى تشبع منا قبل الرحيل ، فما شككنا فى أنها تقصد رحلة الشتاء التى ألفناها منها كل عام !

وقبل موعد الزفاف بليلات ثلاث ، دعتنا « وردة » الى جناحها فى القصر ، وأخذت تعرض علينا معدات الحفلة وهدايا الحبيب ، والدموع تتألق فى ماقيها غبطة وفرحا .

ثم بدا لها أن تجرى تجربة أولى لموكب العروس ، فدعت خطيبها وقدمته الينا ـ نحن صديقاتها الصغيرات العزيزات ـ وألحت عليه أن يرتدى « بدلة الزفاف » وكذلك فعلت هى ، ثم ألبست كلا منا ثوبا من الدنتلا الحريرية البيضاء ، وتاجا من الفل . فلما استكملنا زينتنا قامت تتهادى فى البهو الكبير ونحن من ورائها شبه مسحرات .

★★★

وأشرق صبح « الأحد » المحدد لحفلة القران ، فخرجنا مبكرات كما لو كنا ساعيات الى المدرسة ، ثم لم تكد بيوت الحى تغيب عن أعيننا حتى انطلقنا نعدو الى القصر ، وقد ألهتنا المغامرة عما يعقبها من جزاء ، حين تخطر المدرسة أهلينا بغيابنا طول النهار !

واذا اقتربنا من القصر أرهفنا أسماعنا لعل ضجة الفرح تعجل الينا ورنين الموسيقى يصل الى آذاننا ، لكنا دنونا من القصر رويدا دون أن نسمع نأمة أو حسا !

ورابنا الصمت المخيم على المكان ، وأقبلت كل منا على صواحبها تتساءل : أترانا أخطأنا الموعد وجئنا بعد أن تمت الحفلة ورحل القوم ؟

ولكن كيف ؟ لقد كنا هنا أمس الأول ، ولم يكن للقوم حديث غير يوم « الأحد » ..

ويومنا الأحد دون شك ، فما هذا الصمت الموحش المريب ؟ وجاء البستانى فتعلقنا به نسأله عن الحفلة ، فوضع اصبعه فوق فمه هامسا :

ـ صه ! لا تتحدثن بالله عنها !

وقادنا الى حيث كانت « وردة » منزوية فى مخدعها ، وقد عراها شحوب وذبول !

ودرنا حولها ، نقبل وجهها ، ويديها ، وثيابها ، دون أن ننطق بحرف ، كما أوصانا « عم عطا الله » البستانى .

لكنها هى التى نطقت ..

وقالت وعلى فمها ابتسامة نحيلة موجعة :

« لا تدهشن للذى كان ! كل ما فى الأمر أنا اكتشفنا فى اللحظة الأخيرة ، أن هذا « الغريب » يحوم حول المال ، كما لم يحم أحد قط ممن عرفتهم .

وما تلك بجريمة يؤخذ بها بنو البشر ، ولكن أواه ! لماذا تنكر الشيطان فى زى قديس ، وأقسم لى ـ يوم قدم قلبه لى ـ أنه يجهل كل شىء عنى ؟

فصدقته ، وباركت حبه !

ثم جاء من بلاده ساعيا الى ، فلم يكد يرى قصرنا ، ويسمع عما نملك حتى أبدى امتعاضه ، وأقسم لى أنه كان يود لو كنت فقيرة ، فهكذا عرفنى ، وهكذا أحبنى !

وظل يردد على مسمعى هذا النشيد حتى بدا لى أن المسكين فقد بعض استمتاعه بحبه ، وخسر بعض أحلامه منذ علم أننى فاحشة الثراء .

واذ ذاك اعتزمت أمرا ! ألححت على أبى سرا أن يعفينى

من نصيبى فى ثروته ، ويهبها للفقراء وخدام بيت الله ، فاستجاب لى أبى بعد الحاح !

وأمس أردت أن أفاجىء « الحبيب القديس » بهدية غالية فلم أر أعز ولا أجمل من صك حرمانى من الثروة !

ولن أقول لكن أكثر من انه مضى الى غير رجعة !

وأطرقت « وردة » صامتة ، وأناملها الرقيقة الشاحبة تعبث بأسلاك ذهبية مما يزين ثوب الزفاف ، ثم قامت الى النافذة المطلة على النهر ، فحدقت فى الأفق الغربى طويلا ، ثم آبت الينا ، وعلى وجهها اشراقة نور ٠٠ !

وقالت وهى تعانقنا واحدة واحدة :

وداعا ، فما أحسبنى أراكن بعد اليوم ! أنتن قطعة جميلة من أمسى السعيد ٠٠ وغدا ، حين أمضى الى الدير ، سأحتفظ بالذكرى العزيزة ، تحية للماضى الذى ولى وراح ٠٠ وداعا !

ولم ندرك ــ فى هذه المرة أيضا ــ مغزى ما تشير اليه كلماتها ، ثم كبرنا من بعد ذاك ونضجنا ، فوالله ما مررنا يوما بالقصر المهجور الا ألقينا عليه نظرة ملؤها الشجو والشجن ، وتمثلنا « وردته » الذابلة وهى تودعنا ثم تلم جراحها وتمضى ٠٠٠ الى الدير !

☆☆☆

• الشــاكلة

« وقال القائلون: أما هذه المرة فلن تعيش! لكنها عاشت ...

عاشت عزاء لكل مفجوعة ، وسلوى لكل ثكلى ... فكلمـــا نعى الناعى فتى مرجـوا أو شابة مزهوة بصـــباها ، سعت الثاكلة الى المأتم وأن لم تعرف من أهله أحـــدا ، فاذا ما أطلت على الجمع أطرق واجما متأسـيا ، ووجد فيها الحزانى والثكالى عزاء فى اللحظة التى يذهب فيها الصبر ويعز العزاء ... »

ســألتنى صاحبتى ونحن ننصرف من مأتم زميلة لنـــا ، غالها الموت فى عز شبابها :

ـ هل لك أن تفسرى لى سر هذا المشهد الشاذ الغـريب الذى مثل أمامنا منذ لحظة ؟

أجبت واجمة :

ـ أى مشهد ؟ فوالله ما أنكرت شيئا مما حدث !

قالت :

ـ أما أنا فأنكرت كل شيء • أنكرت هذا لجمود المفاجيء الذى غشى المأتم فى عنفوان حدته ، فتحجرت الصرخات فى حلوق النائحات ، وصمتت النوادب بغتة كأنما أمسكت ألسنتهن يد خفية لا تغلب ، وجمت هذه الأم التى أسلمت عروسها منذ ليلة واحدة ، للتراب والبرد والظلام ! ما رأيت كاليوم مأتما ينقلب فى لحظة واحدة ، الى مثل هذا المشهد الشاذ فى جموده الغريب !

قلت وأنا فى غمرة من الأسى :

ـ ذلك لأنك تجهلين مأساة هذه السيدة الغريبة التى لم تكد تلج باب القاعة المعدة لمأتم الفقيدة ، حتى وجم الجمع وأمسكت الباكيات دموعهن فى المآقى ، وصمتت النوادب لا ينطقن بكلمة !

ان لهذه السيدة قصة يعرفها أهل هذه البلدة جميعا ويعرفون بها أن كل مصيبة تهون اذا ذكرت محنة تلك الثاكلة ، وأن كل لوعة تفتر ، أمام الحزن الأكبر الذى ذاقته جرعة بعد جرعة •

وانصرفت عن محدثتى أرنو من بعيد الى الثاكلة وهى تنصرف من المأتم صامتة كما دخلت ، وتمضى الى بيتها ، تحف بها قلوب المارة من كل طبقة ، وتشيعها نظرات العطف والرثاء على طول الطريق ...

وعادت صاحبتى تسأل :

ـ أهى من أهل الفقيدة ؟

أجبت :

ـ كلا ، ولا هى من جيرانها أو أصحابها أو ذوى قرباها ، بل لعلها لم ترها قط فى حياتها ! أيدهشك ما تسمعين ؟ لكنك لو عرفت قصة « الثاكلة » لما أنكرت منه شيئا !

★★★

وعادت بى الذكرى الى بعيـد ، حيث لاحت لى صـورة مبهمة مختلطة لكارثة ألمت بمدينة دمياط ، فروعت أمنهـا وأقامت فى كل حى منها مناحة ومأتما .

ولست أذكر تاريخ الكارثة على التحديد ، لكنى مازلت حتى السـاعة ، أعى شـيئا مما كان . مازلت أذكـر ذلك الضحى المشرق من أيام الصيف ، وقد روعه نبـأ فاجع عن اصطدام باخرة من بواخر المصيف ، بزورق بخارى ينقـل الركاب فى موسم الاصطياف بين دمياط ورأس البر ، وكان الاصطدام قويا عنيفا انشق الزورق على أثره ، وبلغ عـدد الضحايا من ركابه أربعين !

ودمياط بلدة محافظة ، سـكانها جميعـا من أهلهـا ، تربطهم وشائج من صلات القربى والمصاهرة والجوار ، ولمن شاء أن يتصور مشهد أربعين جنازة ، تسير فى أصيل واحد، ببلدة كهذه لم تحتمل يوما أن يقيم فيها أجنبى مرتزق ، بل لم تتسع يوما لوافد غريب ! لقد انقلبت المدينة بأسرها الى مأتم ، اتسع حتى شمل أحياءها جميعا لم يكد يستثنى منهـا موضعا ، كأنما طاف بها اعصار مجنون ، ألم بدورها دارا بعد دار ، فترك فيها أثره الرهيب : الموت والخراب !

على أن أهل البلد أصبحوا ولا شغل لهم الا الحديث عن مأسـاة بعينها من مآسى الأمس الداير : حدثوا أن ثريا من أعيان البلد ركب الزورق المشـئوم ومعـه ولداه واحـدى الخادمات وترك زوجته فى البيت ترعى ابنا لهما ثالثا ، فى وعكة طارئة ، على أن تلحق واياه بهم فى المصيف عنـدما يخف عنه ما كان يشكوه ...

وحين انشـطر الزورق وانتشر ركابه جميعا فى اليم ، تشبث الأب بولديه وسبح بهما يكافح الموج حتى وجد لوحا من الخشب على حافة الماء ، فأودعهما فوقه . وقد ظن ــ فى ذهول المصاب وبغتة الحادثة ــ أن اللوح قطعة من البر . وعاد يفتش عن الخادمة المسكينة فلما يئس من العثور عليها عاد

الى حيث ترك ولديه فلم يجد لهما أثرا • هنالك جن جنونه ومضى يخبط فى الماء لا يريد أن يرجع بغير ولديه •• وشاء القدر فى ساعة النحس هذه أن يعود تلاثتهم : جثثا هامدة ليس فيها خفقة من حياة •

وحملوا اليها •• الى المقيمة فى بيتها غافلة عما كان ينتظرها من ترمل وثكل • وخيف عليها من الهلاك أو الجنون ، لكنها عاشت ، من أجل هذا الصغير اليتيم ، الذى هو كل من بقى من الأسرة !

★★★

ومضت السنوات ، وامتدت يد الزمان فجففت دموع الباكين والباكيات ، وطوت الأحزان فى أعماق القلوب ، وكذلك سنة الحياة : لا تترك حيا يهلك من أجل فقيد مات !

وتوارت مشاهد الكارثة فى غمار الماضى ، فلم يبق منها سوى لوعة مكتومة وذكرى تطيف ، كأنها أثر من حلم مروع ، قد بعد به العهد ونسجت عليه الأيام والليالى ظلالا من التصبر ، أو الاستسلام ، أو النسيان !

وأحسبنى كنت من بين هؤلاء الذين نسوا ، حتى ذهبت الى رأس البر عام ١٩٤١ أصطاف ، فبينما أنا أزور صديقة لى من صواحب الطفولة ورفيقات الصبا وزميلات الجامعة ، أقبلت علينا أمها على عجل ، تسألها أن تبادر فتلتمس أباها من مجلسه على لسان البحر ، لتبلغه نبأ موت قريب لها شاب• ولم ألق الى النبأ أول الأمر بالا ، وانما اكتفيت بالتعزية والمواساة ، واستأذنت فى الانصراف كى تفرغ الأسرة لما هى فيه ، لكن صديقتى ألحت على أن أبقى ، لعلى أعينها على تدبير ما بقى من ذيول المأساة !

ومضيت معها الى (عشة) الفقيد الشاب ، لأروع هناك بمفاجاة أليمة ، لم تكن لى فى حساب !

ما كان هذا الشاب الفقيد سوى ذلك الصغير الذى غرق

أبوه وأخواه منذ نحو عشرين عاما ، فعاشت أمه من أجله ، واحتملت مرارة الترمل ولوعة الثكل ، لكى تبقى الى جانب ذلك الابن الذى هو كل من أبقى الزمن من أهلها وولدها !

وبلغنى أنها عاشت تلك الأعوام العشرين ، دون أن تجرؤ على الذهاب الى رأس البر ، فقد كان مجرد سماع اسم المصيف ، يهيج أشجانها المطوية ويبعث أحزانها الراقدة ، ويثير مواجعها التى كتمتها فدى لابنها الباقى !

ولكن ولدها انتابته نوبة ضعف عام ، وألح عليها الطبيب المعالج أن تقصد به الى المصيف القريب ، تغييرا للهواء .

فلبت أمر الطبيب ، وهل كانت تملك الا أن تفعل ؟ أليس من أجل هذا الابن الغالى احتملت مالا يحتمل ؟ فلتكن هذه الرحلة الجديدة ضريبة أخرى تؤديها فى سبيل من عاشت له !

وهكذا ذهبت الى « رأس البر » ورأت بعينها المنطقة التعسة التى تحطم فيها الزورق المشئوم ، فكأنما عادت تشيع موتاها من جديد !

وأحست كأنما انبثق فى قلبها جرح دام كبير ، لكنها تجلدت للمحنة ، وراحت تهيىء لابنها حياة صحية ، حيث أوصى الطبيب .

★★★

غير أن القدر كان ينتظرها هناك بسهم أخير :

رمى ابنها ذات يوم بذاك السهم المسموم ، ملوثا « بميكروب التيفود » وعبثا حاولوا انقاذه ، فلا الطب بمهارته ، ولا الدواء بفعاليته ، ولا الأمومة بلهفتها وحنانها وتضحياتها ، استطاعت أن تستخلصه من فكى الردى ...

وتمت المأساة ، بأن أمرت الأم أن تحمل جثة ولدها خفية الى دمياط ، خشية أن يروع المصطافون بهذا النبأ عن اصابة بالتيفود !

وهكذا مضت الثاكلة بجثتها تتسلل فى عتمة المســاء ، كأنها سارقة !

وحيل بينها وبين بكاء ولدها والنواح عليه ، كيلا تزعج المصيف الآمن ..

ومن ذلك الحين لم تشاهد قط باكية ولا معولة !

وقال القائلون : أما هذه المرة فلن تعيش ! لكنها عاشت .. عاشت عزاء لكل مفجوعة ، وسلوى لكل ثكلى .. فكلمـا نعى الناعى فتى مرجوا أو شابة مزهوة بالشـباب ، سـعت « الثاكلة » الى المأتم وان لــم تعرف من أهله أحــدا ، فاذا ما أطلت على الجمع بوجهها الشــاحب وعينيهـا الذابلتين وملامحها الوديعة الحزينة وهيكلها المتداعى ، أطرق واجما متأسيا ، ووجد فيها الحزانى والثكالى عزاء فى اللحظة التى يذهب فيها الصبر ويعز العزاء !

• المقنعــــة

أكانت تلك نهاية القصة ؟

لا أدرى على التحقيق ، غير أنها كانت آخر مشهد رأيته من المأساة ، ومازلت كلما قرأت عن جرائم المخدرات ، ذكرت تلك « المقنعة » التى تركتها على شطوط بحيرة المنزلة ، وقد ألقت قناعها وراحت تكفر عن جريمة أب !

☆☆☆

حينما لقيتها أول مرة ، شعرت بما يشبه الضيق . وكانت قد زارتنى فى حجرتى الخاصة بالقسم الداخلى بالمدرسة ، تهنئنى بعملى الجديد ، وتعرض على خدماتها لسابق معرفتها بالمدينة . وأذكر أنها أطالت الجلوس وأطالت الكلام ، حتى ضقت بها ، وكدت أتوسل اليها أن تدعنى قليلا أستريح ، لكنى تحاملت واحتملت حتى انصرفت مودعة .

وخلوت بنفسى فى ارتياح ، وأحسست كأنى تخففت من أثقال كانت على صدرى ، غير أنى ما لبثت أن شغلت بالتفكير فى هذه الفتاة التى تركتنى منذ حين : ماذا أنكرت منها وما الذى كرهت فيها؟! لم ضقت بها وما زارتنى الا مهنئة ؟ لم ثقل على ظلها وما رأيتها من قبل ولا سمعت بها !!

لم أكن أدرى على التحديد ، غير أنها بدت لى كأنما تضع على وجهها قناعا جامدا • وفيه شىء آخر لم أميزه •• شىء كأنه ظل من الموت •

ورأيتها في اليوم التالى تعمل معى فى المدرسة فتحاشيتها ما استطعت ، غير أنى رجعت الى نفسى اسألها مرة ثانية : ما الذى أنكرت من الزميلة الجديدة ؟ لا شىء على التحديد ، سوى هذا القناع المتخيل والظل الموهوم ! فكرهت لنفسى هذا الضعف ، وقبلت دعوتها للطواف بالمدينة التى لم أكن رأيتها من قبل •

وآنست منها بعد ذاك وداعة ورقة ، لكنها لم تخل قط من ريح الموت ، وظل لها قناعها •• ذلك الجامد الأصم •

★★★

ثم مرضت ذات يوم فمضيت أعودها • قادتنى اليها احدى تلميذات المدرسة • متنقلة بى فى أزقة ملتوية ، تزحمها أكوام بشرية مختلطة بالدواب والحشرات والقاذورات ! وانتهى بنا السير الطويل المجهد الى مسكن لاصق بالأرض ، منزو فى قاع المدينة ، كأنها لفظته بعيدا كيلا يشوه جمالها ، وهى « المنصورة » عاصمة الاقليم وعروس الدلتا •

فى هذا المسكن رأيتها على فراشها ، وقد أنهكتها الحمى •• فمحت ما بقى من معالم الحياة فيها • وكانت بثوبها الأبيض ، فى ذلك المسكن الأرضى الرطب المظلم • أشبه شىء بجثة فى قبر !

ثم دخلت أمها بعد دقائق ، فلذت بها فرارا من حضرة الموت ، كانت أمامى مخلوقة أخرى لا شبه بينها وبين هذه الجثة ذات القناع الميت ••• مخلوقة تعرض صورة معبرة عن متاعب الحياة ، تنبض بالمعاناة •••

وأتبعتها نظرى وهى تتحرك فى الغرفة الضيقة ، ساعية الى بقدح من الشاى ، والى ابنتها بكأس من دواء . فلما آن لى أن أنصرف ، ملأت عينى منها ثم شددت على يدها ، وأنا أقول مودعة :

ـ تسلم لك ان شاء الله !

فرفعت وجهها الى السماء كأنما توشك أن تؤمن على دعائى ، ثم أمسكت صامتة وقد لاح على شفتيها ظل ابتسامة ملؤها تسليم وأسى ودموع ...

★★★

وذات مساء .. ألقت المقنعة قناعها !

رأيتها تسرع مضطربة الى غرفتى بالقسم الداخلى وقد زايلتها بسمتها التقليدية الباهتة ، ونظرتها الجامدة ، وقناعها الأصم .

وارتمت بجانبى تنتفض وتتشنج ، ولكن بلا دمع .

فلما سألتها : ما بها ؟ دفعت الى ورقة كانت بيدها ، ففهمت كل شىء ...

ففى هذه الورقة أمر بنقلها الى قرية منعزلة ، فى الطرف الشمالى من الاقليم . بينها وبين المدينة سفر ساعتين بقطار الدلتا ، ثم مرحلة أخرى يقطعها المسافر على ظهور الحمير ..

قلت : « احتملى ، فذاك مما لابد أن نتعرض له فى حياتنا الجديدة ، ولست بعد هذا ذاهبة الى مكان موحش مهجور » .

فسألت الفتاة فى صوت مبحوح : أو تعرفين تلك القرية ؟

قلت : أجل أعرفها .. انها قرية صيد على شطوط المنزلة ، وقد زرتها طفلة على ظهر قارب ، مع قريبة لى يشتغل

زوجها بالصيد فى البحيرة • ومازلت حتى اليوم أذكر شطها المعشب ، ورابية هناك تشرف عليه ترنو الى قوارب الصيد المبعثرة على الساحل • مغفية حالمة ، فى فترات الراحة بين رحلات الصيادين •

فقاطعتنى قائلة فى توسل :

ـ حسبك يا أخت ! ظننتنى شاعرة ؟ انما أنا مخلوقة مسكينة تعسة ، جنت على الليالى ، مذ كنت طفلة غريرة •

قلت : بل أحاول أن أخفف عنك ما تجدينه ثقيلا ، وأهون عليك الرحيل الى قرية تجزعين للنقلة اليها !

فبدا عليها انهيار مفاجىء ، وفهمت ـ فيما بعد ـ أنها حسبتنى أعرف كثيرا ، فنظرت الى السماء ساهمة وغطت وجهها بكفيها ومضت تروي الفصول الأولى من المأساة :

ـ فهل تعرفين أننى فى هذه القرية ولدت !؟

وعلى تلك الربوة التى تتحدثين عنها ، درجت أيام الصبا الباكر !

وفى أحد هذه القوارب التى أعجبتك مغفية حالمة ، كان ملعب الحداثة وملهى الطفولة ؟

لكننا طردنا منها ونبذنا بالعراء ، أنا وهذه الأم التى رأيتها منذ أيام !

وأما الأب فقد سبق الى السجن، مع عصابة من الصيادين كانت تتجر بالمخدرات ، وتوزعها على السواحل فى قوارب الصيد •

ولم يكن لى ولا لأمى أى علم بالجريمة ، ولا كانت بحيث تهدر اعتبارنا وتحرمنا الحق فى العيش هناك ، بل لعلها كانت جديرة بأن تثير علينا رحمة الرحماء من شركاء أبى وزملائه فى المهنة ، لولا أن هذا الأب كان دليل بوليس المخدرات فى تلك القضية : لم يكد يقع بين أيدى رجال

السواحل ، حتى غلبه الضعف أمام اغرائهم له بالنجاة اذا دلهم على أوكار العصابة وكشف لهم عن أسرارها . فأذاع كل شيء يعرفه عن زملائه ، وكان أداة القبض على أحد عشر رجلا من أهل القرية ، لهم فيها أهل وعشيرة ، وزوجات وأبناء ، ومعارف وجيران ، ولم ينج هو من السجن لقاء ذلك ، بل كبلوا جميعا بالحديد ، وسيقوا الى « الليمان » .

من ذلك الحين ، حقت علينا لعنة القرية كلها ، وحكم علينا بالطرد ، والنبذ ، والنفى .

ولم يكن أهل القرية بحاجة الى أن يعلنوا منطوق الحكم أو يلتمسوا الوسيلة لتنفيذه ، فقد أدركنا من اللحظة الأولى ألا حياة لنا بين قوم ليس فيهم الا موتور من أبى ، أو حاقد أو مشمئز ، وصبت علينا اللعنات من كل لسان ، وطاردتنا أفواج من بشر ساخطين : شيوخ مكسورين ، وأمهات معذبات ، وزوجات تعسات ، وصغار مضيعين ، فصارت حياتنا بينهم الجحيم الذى لا يطاق .

ولقد عشنا هناك ما عشنا ، منزويتين فى دارنا ، لا نجرؤ على الخروج لقضاء أمورنا الا خفية ، وتحت ستار من الظلام ، ووراء قناع من الليل يجهل معالم شخصيتنا ، فاذا اكتشف أمرنا تجمع المتجمعون حولنا لاعنين ، وكشفت النسوة رؤوسهن داعيات علينا بغضب من الله وخذلان .

هنالك حملتنى أمى على جنح الليل ، وخرجت بى فى حذر الهارب المطارد ، تطلب لنا ملاذا فى أرض الله الواسعة .

ولا أحدثك عما احتملت ولا ما قاست ـ فذلك مما لا تصوره الكلمات .

حتى انتهى بها المطاف أخيرا الى تلك المدينة ، اثر مطاردة ملحة من اللعنات والأشباح .

وهنا بدأت تكافح من جديد لكى نعيش !

« وهأنت ذى ترين نتيجة كفاحها ! صرت معلمة ،

ودفعت هى الثمن من نور عينيها وعرق جبينها ، واستنفدت كل حيويتها وقواها ، وفى حسابها أنها تشترى لى سعادة بهذا الثمن .. لكنها كانت صفقة خاسرة !

فما سعدت ولا ارتحت ، وانما ازددت شعورا بالخيبة ، وتمثلا للمحنة ، وادراكا لفداحة هذا الذى كان ، وخوفا من هذا الذى سيكون .

« ولقد شعرت أول الأمر بنقمة عليها : لم تبق لى على نعمة الجهل وراحة الغفلة ؟ وكانت تواجه نقمتى صابرة محتملة ، وترى فى عذابنا استجابة من السماء لدعوات الذين خرب أبى بيوتهم !

وبمثل هذا آمنت ، فلم أعد أراها مسئولة عما كان أو يكون ، ورجعت اليها أستغفرها ، وأجدها مثلى ضحية لعنة كتبت علينا فلا نملك عنها مهربا .

وهذه هى اللعنة تلاحقنى ، وتردنى الى الأرض الشقية التى لفظتنى أنا وأمى منذ عشر سنين » .

★★★

وسكتت ...

فلم أعلق على قصتها بكلمة واحدة ، ولا سألتها عما حل بأبيها فى هذه السنين العشر ، بل مضيت أنظر اليها ، فأرى فيها — لأول مرة — صورة شبيهة بتلك الأم التى راعتنى منذ أيام ..

ثم خليتها ، وخرجت أسعى فى الغاء أمر النقل ، وأستعين بمن أعرف من وجوه القوم ، ثم عدت اليها أحمل وعودا لم يكن ثم سبيل الى غيرها .

وأصبح الصبح فألفيتها تمضى يومها فى المدرسة ، وقد عادت فوضعت قناعها وزيفت ابتسامتها ، غير أنى لم أنكر من ذلك شيئا ، ولم أعد أرى الا فتاة الأمس بكل تعاستها وشقوتها ، والأم بكل ايحائها واثارتها .

ولازمتها ، فلم أغادرها الا بقدر ما رحت أسأل عن نتيجة المسعى ، واستنجز ما بذل من وعود بعدم نقلها .. حتى مر نهار ونهار .. وليس فى أيدينا غير الهباء !

لم أجرؤ على أن أسألها ماذا تنوى أن تفعل ، وتعللت بمثل ما تعلل به ذلك البدوى الذى ضمن ضيفا للنعمان وقد ولى النهار ولم يعد الضيف وهم النعمان بقتل الضامن ، فاستمهله حتى يمضى الأجل كله وهو يقول :

فان يك صدر هذا اليوم ولى
فان غدا لناظره قريب

ولكن غدا جاءنا ولم يأت بشىء .. ومر بعده غد آخر وليس غير الهباء !

وحانت ساعة الرحيل .. فمضت هى وأمها الى المصير المحتوم ، وهما تقولان فى انكسار وتسليم :

ـ علينا أن نمضى .. ذاك حكم الله ، لا عاصم منه ولا مفر .

وانقطعت عنى أخبارهما ، لكنى ما كففت عن التفكير فيهما لحظة واحدة ..

ماذا كان مصير المخلوقتين الشقيقتين فى أرض اللعنة ؟!

وتتابعت الأيام ، والشهور ، ثم صارت الأيام والشهور أعواما ثلاثة ، ولم أظفر بجواب .

★★★

حتى مضيت ذات صيف الى منطقة المنزلة ، فى ضيافة مصلحة الأملاك بتفتيش السرو ، لأشهد النتيجة التى حققتها المصلحة حين مست هذه البرارى المهجورة بعصاها الساحرة ، فردتها جنة زهراء !

وقد انطلقت أرود المنطقة . وأطوف بشطوط البحيرة ،

مدفوعة بعامل خفى خلته أول الأمر أثرا باقيا من ذكريات طفولة تنقلت بين مثل هذه الربوع ، وملأت صدرها بهواء البرارى فى الشمال ٠

حتى ترامى الى سمعى فجأة اسم صاحبتى ٠ فأدركت أنى كنت ألتمس آثارها هناك ، وان لم أتنبه الى ذاك !

★★★

كانوا جماعة من الصيادين ، جلسوا يسمرون على الشط حول نار أوقدوها ، ومن حولهم النسوة يشتغلن بخدمة السمار واعداد العشاء ، والأطفال متعلقون بأمهاتهم فى جيئة ورواح ٠

وغير بعيد منهم أغفت قوارب صيدهم فى حمى الساحل تستريح ٠

قال قائل منهم لامرأة تعلل صغيرا لها يبكى متألما من رمد فى عينيه :

ـ اذا أصبح الصبح فاذهبى به الى « رتيبة » فانها تستطيع باذن الله أن تفعل شيئا يريحه ٠

هزتنى رجفة حين سمعت الاسم ، ولم يداخلنى أى ريب فى أنها هى : فسألت :

ـ أهى بخير وأمها ؟

فهتف الجميع فى تعجب :

ـ أو تعرفينهما ؟

قلت : « نعم ٠٠ عشت معهما عاما طويلا فما رأيت أحق منهما بالرحمة » ٠

فسرت فى القوم همهمة خافتة من التأثر ، ومضى السامر يروى الفصل الأخير من المأساة ٠

« عادت مع أمها الى القرية ، بعد عشر سنين هرم فيها الشباب وشب الأطفال ، فاستقبلناهما استقبالا قاسيا غير

كريم • صببنا عليهما سيولا من الشتائم واللعنات ، وتقدم لحسابهما كل شيخ ، وكل امرأة ، وكل شاب وطفل :

ـ أأنت ابنة المجرم الذى قضى على أبى ؟

ـ ألست زوجة النذل الذى ضيعنا ؟

ـ ألست سليلة الخاسر الذى سلبنى نور عينى ، وحرمنى ابنى الوحيد فى شيخوختى الواهنة ؟

ـ ألست امرأة السافل الذى حطم حياتى ، وضيع صغارى ؟

ـ ألست ؟ •• ألست ؟

وهما واقفتان تجاه الجمع الغاضب الناقم الثائر ، تجيبان عن كل سؤال :

ـ أجل ، أنا هى ••

وعاشتا بيننا أياما من عذاب ، منبوذتين مطرودتين ، لا يكلمهما أحد ولا سبيل لهما الى الاتصال بكائن أو التعامل مع انسان • وكانتا بحيث تموتان جوعا ، لولا ما كان يتسرب اليهما خفية ، على أيدى ضعاف القلوب أو مستغلى الفرص •

حتى روعنا بظهور المجرم فى القرية ، وكان قد خرج من السجن منذ أعوام ، قضاها متشردا طوافا بالشطوط ، يتجر بالمخدرات مغررا بمن يتصيد من السذج الغافلين • يتستر وراءهم ، ويحملهم المخدر ، حتى اذا قبض عليهم أفلت آمنا يتصيد فريسة أخرى • ولعله لم يفكر فى أن يجىء الى القرية ، حتى رجعت اليها زوجه وابنته ـ وقد كان يجهل قبل ذلك أين مكانهما ـ فأتى يطلب المتعلمة الموظفة الكاسبة ، والقرية كلها تحتدم وتغلى !

ثم عثروا عليه بعد أيام قتيلا فى أحد قوارب الصيد ، قتله أحد هؤلاء الذين ضيعهم وخرب بيوتهم ، على مقربة من

زوجته وابنته ، وقد قيدهما القاتل وكممهما وغطى أعينهما ، ريثما غسل بدماء المجرم بعض ما اقترفت يداه ·

وجىء بالمتهم ، وعرض على الشاهدتين فأنكرتا كل شىء ، فأطلق سراحه وقيدت الجناية ضد مجهول · وكان ذلك بدء التفكير ···

وعاشتا بعد ذلك بيننا فى سلام ، وانطلقتا الى أطلال البيوت التى هدمها المجرم ، تعينان وتواسيان ، ووهبتا نفسيهما لعمل الخير ، لعلهما تكفران عن جريمة الشيطان!»

★★★

مضى بى دليل القول الى « رتيبة » فى اشراقة الضحى ، فألفيتها جالسة فى فناء مدرسة القرية ، ومن حولها صغار يحيطون بها ويتسابقون للظفر بأقرب مكان اليها · فلما رأتنى اختلجت اختلاجة خفيفة ، وترنحت فى عينيها دمعة أمسكتها ، ثم صافحتنى بوجه بلا قناع :

ولم تكن بحاجة الى أن تتكلم ، ولا كنت بحاجة الى أن أسمع ·

سألتها :

ـ أين أمك ؟

قالت وهى تضم الى صدرها طفلة صغيرة :

ـ صحبت أم هذه الصغيرة الى مستشفى المدينة ·

★★★

أكانت تلك نهاية القصة ؟ لا أدرى على التحقيق ، غير أنها كانت آخر مشهد رأيته من المأساة ، ومازلت كلما قرأت شيئا عن جرائم المخدرات ، ذكرت هذه المقنعة التى تركتها على شطوط « بحيرة المنزلة » ، وقد ألقت قناعها ، وراحت تكفر عن جريمة أب ·

فاليها ـ حيث تكون ـ تحية ودعاء ··

• ولايـــا

« كن يعشن فى عوامة متهالكة ، لا يصلهـــا بالشط الا معبر واه واهن ، يريد فى كل حين أن يتداعى • وكانت حياتهن جميعا تهتز فى كف الزمان كما تهتز العوامة على سطح الماء ، وكلما أوشـــكت أن تهوى الى قاع اليـم ، وقفت الأم ومن أدركت من بناتها ، يكافحن ويقاومن ، ويســندن بظهـــورهن الضعيفة وأناملهن الخرعة ،ا تلك الحيـــاة القلقـــة العائمة ! »

☆☆☆

لم يكن ينقصها سوى شيء واحد هو فى حياتها كل شيء •• لقد أمضت طفولتها وصباها وفجر شبابها فى بيت كله نساء •• مات أبوها وتركها طفلة مع أخوات لها خمس ، ومع أم كهلة تقطعت الأسباب بينها وبين أسرتها منذ زمن بعيد • ولم يكن لهؤلاء الولايا عم ولا خال ، ولا كان لهن من الغنى الظاهر أو الجاه الموروث ، ما يشترين به العم والخال •

ومن ثم أغلقت الأم عليهن بابها ، وراحت تدير حاجاتهن المادية فى بطولة صابرة ، مستعينة بقطعة من مال موقوف ، آلت اليها من ذى قرابة بعيدة • فلما كبرت البنيات وكثرت

حاجاتهن ، كانت قد هيأت الـكبريات منهن للمشـاركة فى الكفاح الناصب ، والجهاد المفروض ٠

وكانت صاحبتى هذه ، كبرى هؤلاء البنات فحملت العبء قبلهن ، وأحست محنة الحرمان احساسا أقسى وأعنف ٠ وهى لا تذكر أنها شكت الجوع يوما ، أو باتت ليلة على الطوى ، غير أنها لم تزل تذكر فى رجفـة موجعـة ، تلك الوحشـة الكئيبة التى كانت تظلل صدر حياتها مع أمها وأخواتها ٠ كن يمضين أياما وليالى ذوات عدد لا يطرق بابهن طارق ، ولا يلم بهن زائر ٠ ويا ما أكثر ما خيل اليهن أن ما بينهن وبين العالم قد انقطع !

كن يعشن فى عوامة متهالكة ، لا يصلها بالشط الا معبر واه واهن ، يريد فى كل حين أن يتداعى ٠ وكانت حياتهن جميعا تهتز فى كف الزمان ، كما تهتز العوامة على سـطح الماء ، وكلما أوشكت أن تهوى الى قاع اليم ، وقفت الأم ومن أدركت من بناتها ، يكافحن ويقاومن ، ويسندن بظهورهن الضعيفة وأناملهن الخرعة ، تلك الحياة القلقة العائمة ٠

★★★

ولم تع ذاكرتها صورة رجل أطل عـلى هـذا الجمع من النسوة فتصدق بكلمة مشجعة أو نظـرة مواسـية ٠ كلا ، ولا سجلت أذنها صوت رجل قوى رحيم ، يسألهن ان كن فى حاجة الى عون أو سند ، وانما هى أيام متعبات متشابهات ، وليال طويلات موحشات ، ونساء ونساء ٠٠

وكان الحديث عن (الرجل) مسلاتهن الواحدة فى تلك الوحشة الجاثمة ، يستعن بها على كدح النهار وسهر الليالى ، وينفسن بها عن الحرمان الأليم الذى يكابدنه !

على أنهن ما لبثن أن كففن عن ذكر الـرجل ، فقد جن حرمان البنت الكبرى وتمزقت أعصابها ، ومسها طائف من خبال ، فهى تتلوى فى ألم مجنون كلما سمعت لفظ (الرجل)

أو لمحت شخصه من بعيد . وأدركها الاعياء فتخلفت عن ركب المكافحات فى سبيل العيش ، وارتمت تنظر فى حسرة الى أفواج الرجال العائدين الى بيوتهن ونسوتهم ، قبل أن يجن الليل وينتشر الظلام .

وعبثا حاولت أمها أن تنقذها أو تردها الى قطيعها ، فقد شردت منه ولزمت كوة فى العوامة ، ترصد موكب الرجال كل مساء ، وترنو الى ما يحملون معهم الى بيوتهم من فاكهة أو طعام ، فاذا غيبتهم عنها الأبواب ، تبعتهم بخيالها حينا فى استغراق ذاهل ، ثم آبت تصرخ من الألم والحرمان ، وتنشج نشيجا عنيفا يهز كيانها كله ، حتى ينقذها البكاء ..

ولبثت على الأيام تبكى وتبكى ، حتى كل بصرها ، وعشيت عيناها من طول البكاء !

من ذلك الحين ، أمسكت الأم وبناتها عن ذكر الرجل ، وسكتن على ظمأ وانكسار ، ولم يبق لهن بعد هذا ما يؤنس وحشتهن فى حياتهن المتأرجحة على ثبج اليم ، فكن يقضين نهارهن وشطر ليلهن ، عاملات ناصبات ، ساعيات فى سبيل الرزق ، حتى اذا أوغل الليل ، غشيهن صمت موحش ، وأطاف بهن طائف من الحسرة والأسى ، وتاهت نظراتهن الكسيرة فى غيابات الليل الطويل ..

ثم حدث ما يشبه المعجزة ..

وأذنت السماء أن ترفع اللعنة عن بيت الولايا ..

وبدا كأن الحرمان نفسه قد تعب من مشهد هؤلاء الولايا فى ذلتهن الموجعة وصمتهن الحزين ، وأن الشفاء قد مل صحبتهن التى طالت أعواما ...

حملت الأم كبرى بناتها الى طبيب تسأله أن يمسك عليها تلك البقية الضئيلة من النور ، فقد أوشكت أن تمسى عمياء . فلبس الطبيب منظاره ، وراح يحدق فى البصر الكليل ، الذى نسج عليه الهم والضنى سحابة من دخان .

وثبتت عينا الأم على شفتيه ، وانتظرت حكم القدر ..

قال الطبيب فى جمود :

ـ أبذل جهدى ...

تداعت الأم أو كادت ، على حين ظلت الفتاة الشابة على صمتها واطراقها !

ثم قامتا تلتمسان الباب ، فتقدم اليهما رجل كهـل من أقرباء الطبيب يعينهما على أمرهما، وخرج بهما الى الطريق، يسند بيمينه نصف ميتة ، ويقود بيسراه نصف عمياء !

وأوصلهما الى معبر العوامة ، وهم بالرحيل .

قالتا :

ـ هلا شرفتنا فشربت القهوة ؟

فلبى الدعوة ..

وآن لهؤلاء الولايا أن يرين رجلا !

ورأته نسوة أخريات من نوافذ أخرى، والتقطت أعينهن الراصدة مظهره ومرآة ، ثم تلاقين فى بعض بيوت الحى على شبه موعد ، يتناقلن نبأ هذا الحدث الجديد !

وتتابعت الأيام ، وهذه الأعين الراصدة ترقب الزائر من نوافذها ، فى غدواته وروحاته ، والأم وبناتها فى شغل به عن كل عين ، لا يلقين اليها بالا .

وهل فى الدنيا جميعا ما يعنيهن ، وهذا « رجل » قد دخل عالمهن الموحش المتداعى ، فبث فيه شيئا من قوة ، ونبض حياة ؟!

وأى حديث فى الدنيا يصـل الى آذانهن ، وهى تنصت مبهورة الى صوت « الرجل » يتردد فى أنحاء العوامة فينقلهن الى عالم جديد لم يعرفنه من قبل ؟

من هو ؟ من قومه وذووه ؟ ما عمله وما ظروفه ؟ أسئلة لم تعن الأم بالبحث عن جواب لها ، فبحسبها أن ترى فتاتها الأولى التى أرهقتها اللعنة ، تثوب اليها وقد زايلها خبالها ، وارتد شعاع من النور الى بصرها الكليل .

كانت الفتاة تراه يدخل البيت وفى يمينه شىء من فاكهة أو طعام أو باقة زهر ، فيشرق وجهها بابتسامة راضية ، وتنقل بين دور الحى نظرات ندية بدمع رقيق !

وتأملها الرجل ففتنه هذا الشباب الناضر ، بعد أن خلاه اليبس والذبول والجفاف ، وخلبته هذه الدموع الهنيئة التى تتألق فى عينيها الضيقتين ، كأنها لآلىء لامعة تلوح من شقوق المحار . ولذ له أن يراقب انفعالها وهى تستقبله مشوقة مرتجفة ، كما تستقبل النور والنعمة والحياة ..

ولم يكن فى حاجة الى شىء من الجهد لينالها . زفها اليه حرمانها الأول ، ومحنتها المرهقة ، فسعت اليه راضية شاكرة ، ومن حولها أمها وأخواتها ، ضارعات مبتهلات .

وردد الليل الساجى زغاريد الفرح ، وتلألأت على صفحة النيل أضواء العرس ، وتراقصت العوامة المتداعية فى نشوة وغبطة .

وتلاقت نسوة الحى فى بعض دورهن على شبه موعد يتناقلن قصة الزواج الجديد ، ويروين ما كان ، ويتنبأن بما سوف يكون !

★★★

يا فرحة لم تتم : خطفها غراب الموت وطار !

هذه عروس الأمس تعود من المقابر ، مثقلة بحمل لم يكمل شهره الخامس ، ومن حولها ولاياها ــ أمها وأخواتها ــ نادبات معولات ، قد رحل عنهن « الرجل » الواحد الذى ساقته اليهن السماء !

مات .. وظهرت له من بعد موته زوجتان أخريان ،

وبنون وبنات ينكرون العروس الشابة ، ويستعدون للقضاء عليها ، وعلى جنينها ، وعلى المريض الذى مات ٠

وعرفت الولايا لونا جديدا من النضال ، وطال ترددهن على المحاكم الشرعيــة والمجالس الحسـبية ، يثبتن شرعيــة الــزواج ، ويدافعن عن أبــوة الأب الميت ، للجنين الذى لم يولد بعد ٠٠

ثم ٠٠ رويدا رويدا ، عاد الصمت الكئيب يخيم عـلى العوامة وأغلق بابها على النسوة السبع ، وعلى ثامنة : طفلة ينكرها أهلها ، وان اعترفت بها المحاكم ، وقيدتها سـجلات المواليد ٠

تسع ســنوات مضت ، والأرملة الشـابة ترقب مدخـل العوامة لعلها ترى على الباب رجلا ، وتصغى الى هزات المعبر، لعلها تميز فيها خطوات رجل يسعى اليها ٠

تسع سنوات مضت ساعة فساعة ، ويوما فى أثر يوم ، وعاما بعد عام ، وهى تطل بعينيها المتعبتين على عالم الوحشة والحرمان ، وتجاهد مستميتة لكى تنجو من اللعنــة الماحقــة التى كادت تدمر حياتها ٠

★★★

لولا أن لاح على البعد سراب حسبته ــ لكلال بصرها ــ ماء !

كانت تتردد كثيرا على الطبيب ، اذ أعياها أن تنال ايراد الميراث الضئيل الذى ورثته هى وطفلتهــا ٠ ولم يكن لهــا سبيل الى أهل الميت ، فتوسلت بقريبه هذا الطبيب ، ووكلته عنها فى الأمر كله ٠ ولقد وجدت من عطفه واهتمامه ، ومن وعوده وعهوده ، ما ربطها اليه وأدناها منه ٠

وخايلها بالأمل فى أن يتزوجها ، فاندفعت فى طريقــه شبه عمياء ، ودفعت أفدح ثمن : قد رجمها أعداؤها وأثاروا

حولها الريب والشبهات ، وسعى اليها الساعون يسألونها أن تقطع ما بينها وبين الطبيب ، انقاذا لسمعتها وحرصا على مستقبلها لكنها أبت أن تصغى ، وأى مستقبل لها بعد أن قال أعداؤها فيها ما قالوا ؟ لقد وعدها « هو » أن يتزوجها ، وانها لترضى بالهوان والذل ، لتجد فى النهاية رجلا !

وظلمها الناس فوصموها بالتبذل ، ورموها بالسوء • وما كانت مبتذلة ولا هى امرأة سوء ، وانما لاذت بالطبيب حين قيدتها اليه الأقاويل والشائعات • وتعلقت به كارهة راضية ، مجبرة مختارة ، اذ كانت فى يده وحده نجاتها •

وتوسلت اليه بكل شىء ليفى بما وعد ، فماطل وسوف، وشكا واعتذر :

هناك زوجته « الغنية » سوف تتركه لو تزوج ، وما يستطيع أن يقيم حياته دون جنيهاته الأربعين كل شهر ! وهناك بنتاه ـ وهما فى سن الزواج ـ سوف يزهد فيهما الخطاب ، لو علموا بفصال بينهما وبين الأم الغنية !

أما تستطيع الأرملة أن تنتظر عاما آخر لعل ابنتيه تتزوجان ؟

قالت : « انتظر •• »

وهل كانت تستطيع ألا تفعل ؟!

ومضى عام وعام •• وعام •

ثم جاء الزمن بحل لم يكن فى الحساب !

ماتت زوجة الطبيب ، فهل من بأس عليه لو تزوج صاحبته ؟

أجل هناك بأس ! فقد أوصته الفقيدة « الكريمة » وهى على فراش موتها ، أن يتزوج أى النساء شاء ، الا «هذه» !

وقد فعل ، تزوج أخرى ، وخلى « هذه » تتساءل فى

يأس وذعر : هل فى الناس من يرضى بها بعد الذى ذاع عنها وشاع ؟ !

★★★

لكن واحدا من الناس رضى بها :

رجل شيخ ، قطع ستين عاما من رحلة الحياة ، فى ظروف شاقة منهكة ، وأحيل الى المعاش فانزوى فى بيته جامدا ، قد انصرفت زوجته « الحاجة » فى شيخوختها الى العبادة ورعاية الأبناء والأحفاد ، وتركته يقطع هـذه المرحلة الموحشـة من حياته ، وحيدا مكتئبا ..

ورأى الأرملة الشابة عنـد شقيقة له ، فاندفع نحـوها يلتمس أن تؤنس ما بقى له من أيام حيـاته . ولم يكلفـه الأمر عناء : زفها اليه حرمانها الأول والثانى ، وساقتها له قلة الرجال وعثرة النصيب ..

من هو ؟ من أبناؤه ؟ ما ثروته وما غده ؟ أسئلة لم تقف الأرملة لتبحث عن جواب لها ، فحسبها انها وجدت رجلا !

★★★

ويا فرحة لم تتم ! خطفها غراب البين وطار ..

لقد ثار الأبناء على أبيهم الشيخ ، واتهمـوه بالسـفه والجنون وأسرفوا فى اهانته ، وألحوا فى مطاردته ، وسمموا كأس عيشه الجـديد ، فتداعى كيـانه المتعب الهزيل تحت لطماتهم ، ولم ينجه منهم سوى الموت .

وترنح معبر العـوامة تحت وطء أقدام البنين ، وقـد جاءوا يطالبون بمـلابس الميت وسـاعته الذهبيـة وأزرار قميصه !

ثم رويدا رويدا ... سـكنت الضـجة ، وعاد الصمت الموحش يخيم على العوامة وأغلق بابها على الولايا الأوليات ، وعلى تاسعة : طفلة يتيمة أخرى يتنكر لها اخوتها ، لأبيها ، ولا تعترف الحكومة بحق لها فى المعاش !

وتلاقت نسوة الحى فى بعض دورهن على شبه موعد ، يتناقلن حـديث الأرملة التى أفنت رجلين ، وأكلت زوجين وورثت شخصين !

ونطقت ألسنتهن بحكم القدر :

حسبها ، فما لها فى الرجال بعد هذين نصيب !

ثم خلينها ، وفى حسابهن أن قصتها قد انتهت · وأن الزمن قد نفض يديه منها ، فلن يكون من أمرها جديد ·

ولكن حدث ما ليس فى هذا الحساب ، وتمخضت الليالى عن عجيبة لم تخطر لاحداهن على بال ··

★★★

سألتنى زميلة لى :

ـ أسمعت ؟

قلت : ماذا ؟

قالت : فلانة قد تزوجت ـ أو كادت ـ من ضابط أجنبى ، حملته موجة الحرب من موطنه فى جنـوب افريقيـا ، حتى رست به على شط النيل فى عاصمة الوادى ·

قلت فى ارتياب :

ـ كذلك انتن ! ما يفرغ لكن حديث عن حب هـذه أو زواج تلك ، من الزميلات والجارات !

فلم تجادل ، بل مدت يدها الى التليفون ونادت صاحبتنا تقول لها :

ـ هذه واحدة تكذب أذنيهـا وتستريب فى أخبـارنا ، فاروى لها أنت قصتك ، فما أراها تصدق الراويات منا ·

وسمعت صوتها ـ أجل صوتها بنبراته المميزة ونغمته الخاصة ـ يسألنى لم لا أصدق وقد أرهقها الانتظار ، ونفض

رجالنا أيديهم منها ، فما يرضى واحد أن يتزوجها وقد عرف عنها أنها خناقة الرجال !؟

قلت : ودينك ؟ وقومك ؟

فأجابت على الفور :

ـ أما الدين فلا بأس على وعليه ! شهر صاحبى اسلامه، فهو اليوم « أمين المهدى » وأما قومى فأى حق لهم فى ، وما فيهم من يعصمنى من العمى أو الجنون ؟

قلت : وابنتاك ؟

قالت : أما الأولى فقد فرغ همها أو كاد ، وعما قريب تتم دراستها وتجد عملا وأما الثانية فتأتى معى الى جنوب أفريقيا ، وما أحسب أن أحدا من أهلها يعنيه أين تذهب !

فهزتنى الرحمة على الطفلتين ، وعلى أمهما ، ثم عدت أســـأل :

ـ وكيف عرفت صاحبك ؟

أجابت فى صراحة :

ـ لقيته صدفة فى نادى الجزيرة ، وكان وحيدا وكنت كذلك ، ثم كان حديث ، فتفاهم ، فخطبة ، وان هى الا أيام معدودات ، يستكمل فيها الاجراءات الشكلية ، وينال تصديق القيادة العليا ، ثم ينتهى الأمر ..

★★★

ولقيتها بعد ذلك بعام فأنكرتها ..

وكانت تخطو على « كوبرى أبى العلا » خطوات حذرة تخشى العثار ، فلما دنوت منها حدقت فى ببصرها المتعب ، ورفعت الى وجها رسم عليه الزمان خطوط الهم ، والقهر ، والشجن .

وقالت وعلى شفتيها ابتسامة هزيلة :

ـ أراك تنكرينى !

فتجاهلت كلمتها ومضيت أسأل : أين ؟ وأين ؟ ..

فهزت رأسها وقالت وهى تضحك باكية :

مضى ٠٠ وطار!

ثم أطرقت واجمة ، فهممت بالابتعاد عنها ، لكنها أمسكتنى وقالت وهى تشرق بدمعها :

هلا سمعت بقية القصة ، كنا نتهيأ للزواج ، ولم يبق الا أن ننتظر خاتما من الماس بعث خطيبى يطلبه بالطائرة من جنوب افريقيا ، لكنه دعى فجأة للاشتراك فى حملة جوية على جزيرة مالطة ، فعاد منها جريحا نصف أعمى ٠ ولما سعيت اليه فى مستشفى المعادى ، مد يده الى مصافحا مودعا ، وكان ذلك آخر عهدى به ٠

★★★

لم أجد ما أقوله ، واستأنفت هى سيرها وأنا لا أقوى على متابعة النظر اليها ، فلاذت عيناى بالسماء ، وتركتها تغيب عنى فى الخضم، بخطواتها المتعثرة ، وبصرها الكليل٠

• التائبة

« ... وهبت مذعورة تتساءل :

أو كنت أخدم أعداء بلدى ؟ ثم فرت هاربة بصغارها اليتامى ، وهى تلفظ اللقمة المسمومة التى كان الأعداء يقدمونها اليهـا ، وعادت تهيم بهم فى الطرقات تسأل كل غاد ورائح : أو يغفر الله لى ؟ »

نشأت فى برارى الشمال على أحد شطوط بحيرة المنزلة ، يتيمة معدمة ، فى كنف أخت لأبيها عقيم لا تلد . ولم تكن الأخت ذات ثراء ، وانما هى زوجة صياد محـدود الرزق ، يحمل شباكه ويظل يجوب بها متنقلا بين الشطوط ، أو موغلا فى عرض البحيرة ، حتى اذا ظفر بمئـونة يـومه ، عاد الى كوخه قانعا راضيا ، فلا يكاد يدنو منه حتى تلقـاه الصبية اليتيمة متهللة الوجه مشرقة الأسارير ، فيلقى اليها بصيده ، وملء يقينه أن الله يرزقه من أجل هذه الصغيرة اليتيمة .

ولعل الزوجة « الأخت » أنكرت على الطفلة أن تستأثر برعاية الزوج وحنوه ، أو لعلها أحست فى ذلك ما ينكأ جرح عقمهـا ، لكنهـا كظمت قهـرها قـدر ما أطاقت ، ولبثت أعواما ذات عدد ، تشهد فى حسرة آكلة ، عواطف الأبـوة

المحرومة يغدقها الزوج على أختهـا فى اسراف مثير ، يأبى عليها أن تنسى وجيعتها ، ويحرمها نعمة الوهم الذى خيل اليها زمانا أن زوجها قد يبدأ على الأيام من شوقه الى الأبناء .

وكانت بحيث تتخذ من أختها الطفلة ابنة لها كما فعل الزوج ، وما من شك فى أنها حاولت ذلك فى صدق رغبة واخلاص نية ، وأسعفتها الظروف أول الأمر على ذاك ، حين ألقت بالطفلة بين يديهـا بعـد أن مات أبواها ، فبثت فى الكوخ روحا من الحياة ، جعلت الأخت تأنس اليها وتلتمس عندها ما يرضى أشواق أمومتها المحرومة ، غير أنها لم تكد ترى زوجها يقبل على الطفلة ــ وقد كانت تخشى أن يضيق بهذا العبء الطارىء الذى يلقى على كاهله ــ حتى احست قلقا مبهما مازال يزداد حتى صار هما مقيما . فلقد أزعجها أن الصغيرة أيقظت فى الأب المحروم هاجع الشوق ، واراحته من كاذب الصبر ، واذاقته بعض ما يجهل من طعم البنوة !

★★★

ولم تدر الزوجة ماذا تفعل بأختها ، فقد بدا مما يشبه المستحيل ، أن تلفظها وترمى بها الى الطريق شريدة منبوذة بغير مأوى ، فان الزوج جدير بأن يحول دون ذاك ولو قوض البيت وهد أركانه .

لكن القدر تطوع بحل المسألة ... ساق الى المنطقة نفرا من مرتادى المصايف النائية المنعزلة ، فنشأ بينهم وبين أهل الشط نوع من التعارف والجوار ، أغرى زوجة الصياد بأن تلتمس عند بعضهم عملا للصبية ، ولما ولى الصيف ولاحت طلائع الخريف ، بذلت كل ما فى وسعها من جهد وحيلة ، كى ترحل الصبية مع الراحلين الذين رحبوا بها .

ووقف الزوج واجمـا يرنو الى ربيبته الصغيرة وهى تساق الى قطار البرارى دون أن تدرى أين يمضى بها . لقد قالت لها أختها ــ فى صبيحة ذلك اليوم فحسب ــ ان عليها أن تسافر ، فأذهلتها المفاجأة عن لم ؟ وأيان ؟ وأين ؟ ثم ساورها

القلق والخـوف ، فتشبثت برداء الصياد فثابت اليهـا الطمأنينة . وظلت هكذا متشبثة به حتى انتزعوها منه فى اللحظة الأخيرة فعاودها الخوف لكنها قاومته بأن راحت ترنو الى الصياد فى توسـل ، وهى تدعو الله فى سرها أن يتعطل القطار فترة لتعود فتستمتع ساعة أخرى بلمسة رحيمة من يد الرجل البار ، وتستعيد بعض ما فقدت من أمن واطمئنان !

لكن بصرها ارتد عن الرجل حسيرا ، فقد كان فى وجومه أشبه بمأخوذ ، لا يكاد يحس يد زوجته وهى تدفعه ليعودا الى البيت ...

وبغتة ، اندفع الرجـل الى القطار فى اللحظة التى هم فيها بالتحرك ، فاختطف الصبية من بين القوم الذين أذهلتهم المفاجأة ، ثم راح يعدو بها نحو الشط ، وامرأته من ورائه تدمدم مغيظة محنقة !

وهبت العاصفة !

غلا مرجل الغيظ الذى ظلت الزوجة تكظمه عاما بعـد عام ، وانفجر بركان القهر المكبوت الذى توارى حينا وراء ركام التصبر والمداراة فهاجت تسأل زوجها عن سر تعلقـه بالفتاة ، ثم جن غضبها فخيرته بين احدى اثنتين : هى ، أو أختها ؟

واذ ذاك جنت كرامته وانسانيته فاختار الثانية ! وحين راجعه أهل الشط فى ذلك ، أعلن بملء صراحتـه وايمانه أنه لا يستطيع أن يقذف بهذه الصـغيرة اليتيمة البريئة الى عرض الطـريق ، ارضـاء لجنـون زوجة ظالمـة مسرفة فى التجنى !

ومضى عام واحد ، تفتح فيه صبا الفتاة ، وأقبل عليها شبان البلدة يلتمسون يدها ، لكنها أصرت على ألا تتزوج من غير ولى نعمتها ، ذاك الذى آمنها من خوف وأطعمها من جوع، ودفع الثمن الباهظ ليحميها من التشرد والضلال .

وظن الرجل أنها تفعل ذلك وفاء بحقه عليها ، وسدادا لما تسميه دينا ، فكره أن يرهق صباها بهذا السداد ، وحاول ما استطاع أن يصرفها عنه الى سواه من الشبان ، لكنها كانت قد أحبته فعلا ، ولم يعد فى طاقتها أن تنفصل عنه أو تحرم العيش معه ٠

★★★

وتلقى الحى نبأ هذا الزواج فى وجوم لم يلبث أن صار الى شىء من الانكار ، فلم يسع الرجل الا أن يخرج بزوجته مهاجرا يلتمس رزقا فى أرض الله الواسعة ٠

ونقلتهما لقمة العيش من بلد الى بلد ، حتى استقر بهما المطاف أخيرا فى احدى القرى الواقعة على ترعة الاسماعيلية ، حيث اشتغل الزوج ملاحا لاحدى السفن الشراعية ٠

واذ ذاك بدأت أعرف الزوجة ٠٠

لمحتها بين جماعة من النسوة جئن الى العيادة الخاصة بتفتيش الجمعية الزراعية فى بهتيم ، فميزت فيها على الفور طابع سكان البرارى من أهل الشمال ، وأنست هى الى ، فكانت تلم بى زائرة فى فترات متباعدة ٠

ثم غابت عن المنطقة ، وقيل أنها آبت الى الشمال ، فبقينا حينا نذكر وداعتها وسذاجتها ولطف شمائلها ، ثم تضاءلت هذه الذكرى ، حتى طواها كر الغداة ومر العشى !

★★★

الى أن أتانا بأخبارها من لم نزود !

كان ذلك فى مطلع الخريف الماضى ، وقد بدأت العاصمة تستقبل فوجا بعد فوج من آبنائها العائدين من القنال ٠٠ أولئك العمال الذين تركوا العمل فى معسكرات العدو الغاشم ، وأبوا أن ينسجوا بأيديهم رداء العار الذى أعلنت مصر فى غضبتها المباردة ، أنها لن ترتديه أبدا ، وآبو الى الوطن الكريم أعزة كراما ، لايسألون عن غد كيف يكون ،

ولا يفكرون فيما قد يتعرض له صغارهم من جوع وحرمان ، وانما همهم الأول أن ينجوا من الذل والهوان والا يضعوا أيديهم فى يد اغتصبت حرية وطنهم ، وحاولت ـ مدى سبعين عاما طوالا ـ أن تسلب ما فى كيان من عناصر الخير والبقاء !

وكان أحد هؤلاء العائدين من القنال هو الذى حدثنا عن « خيرية » .

قال انه رآها هناك فى القنال ، حين أغراه بعض صنائع الاستعمار بالرحيل الى منطقة الاحتلال ، فانساق مسلوب الارادة ، معصوب العينين يلتمس هناك غنى الدهر وفرصة العمر !

★★★

راح وملء مسمعه قصص مثيرة عمن سبقوه الى العمل فى تلك المنطقة المستمرة ، فأمسوا بين عشية وضحاها من ذوى الثراء العريض . وكان قد أمضى سنوات ذات عدد ، أجيرا فى مزرعة لأحد كبار الملاك بالقليوبية ، فما عرف طوال تلك السنين معنى الشبع ، ولا ظفر بنوه يوما بأكلة طيبة أو كساء كاف ، أو مأوى كريم . وقد قاوم زمنا ، اغراء الذين زينوا له أن ينزح الى القنال ، مستجيبا ـ فى مقاومته ـ الى ما فى فطرته من كراهة الانجليز ، لكن الاغراء ظل يطارده ملحا ، ويعرض على خياله صورا فاجعة للمصير الأغبر الذى ينتظر عبيد الأرض !

ولم يكن يتصور أنه سوف يلقى « خيرية » هناك ، فقد عرف زوجها مسرفا فى كراهة هؤلاء الدخلاء أعداء العرب والاسلام ، كما عرفها هى زاهدة صابرة ، راضية بالقليل ، عصبية بفطرتها على الاغراء ، ساذجة لا تدرى أن الحياة شىء سوى هذا الكفاح المرير فى سبيل العيش !

ثم سمع قصتها ففهم كل شىء !

لقد مات زوجها فى محنة « الكوليرا » وترك لها ثلاثة

صغار يتامى ، ظلت تهيم بهم فى الطرقات تلتمس رزقا ، حتى رماها الجوع الكافر الى معسكر للاحتلال ، هيأ لها ولصغارها عملا وطعاما ومأوى ..

استخدمها « غسالة » لثياب جنوده ، واستعمل أكبر أبنائها وقادا فى زورق بخارى ينقل التموين عبر القنال ، وألحق الولد عاملا فى مصنع للذخيرة .

وأقامت هنالك عاما وبعض عام ، طاعمة كاسية ، غافلة عن ذلك الغضب المكبوت الذى ظل يهدر فى أعماق مصر سنين طويلة ، ثم انفجر أخيرا فكان الدوى الرهيب الذى هز تلك الأم الغافلة ، فأيقظها كما أيقظ كل المصريين الذين كانوا يعملون مع جنود الاحتلال .

وهبت مذعورة تتساءل :

ــ أو كنت أخدم أعداء بلدى ؟!

ثم فرت هاربة ببنيها ، وهى تلفظ اللقمة المسمومة التى كان الأعداء يقدمونها اليها ، وعادت تهيم بهم فى الطرقات جياعا مشردين ، تسأل كل غاد ورائح :

ــ أو يغفر الله لى ؟

ثم لم تك أيام معدودات ، حتى سمعنا أنها اندفعت نحو خط النار تريد أن تكفر عما ظنته خطيئة واثما ، وهنالك .. قدمت من فلذات كبدها وقودا للنار المقدسة التى أشعلتها مصر لتطهر أرضها الطيبة من أولئك الأوغاد الذين انتهكوا حرمتها وامتهنوا كرامتها !

• الكاذبة

ولما سئلت « سلمى » عن الجانى ، وأجابت بأنهـــا لاتعرفه ، فما راع القوم الا أن رأوا القتيل المحتضر يتململ فى مرقده ، وينظر الى « ســلمى » نظـرة ملؤها الشك والفزع والعتاب .

« وهم بأن يتكلم ، لكن الكلمات ماتت على شفتيه ، وان كان الرفاق يقسـمون أنهـم سمعوه يتمتم وهو يحدق فى سلمى : كاذبة ! ثم انتهى كل شىء .. »

كنت أراها من حين الى حين ، فى « مصـيف أبى قير » الهادىء المنعزل ، ذاهبة آيبـة ، تقضى لســادتها حاجتهم من سوق البلدة ، فاذا حان الأصيل انتبذت مكانا قصيا فى غرب المصيف ، وجلست عند حافة الماء ، تلقى عينـا عـلى سادتها الصغار وهم يبنون قصور الرمال ، وترسل عينا أخـرى الى الأفق الشرقى ، بادية السهوم .

وكانت هى التى بدأتنى بالحديث :

.. رأتنى ذات أصيل أتريض وحـدى عـلى الساحل ،

فسألت عن (الطفلة السمراء الحلوة) التى طالما رأتها فى صحبتى • فالتفت اليها أتأملها ، وقد رنت فى مسمعى هذه اللهجة « الدمياطية » التى لا تخطئها أذن كأذنى ، هدهدتها فى المهد ، تلك اللهجة المميزة •

وتساءلت الفتاة وهى ترانى أتأملها :

كأنك تشبهين على ؟

فأجبت على الفور :

ــ كلا ••• ولكن يخيل لى أن فى ملامحك شيئا غير غريب عنى ، وأحس كأنى سمعت مثل صوتك من قبل •••

فأجفلت بغتة ، ثم عادت تلاحقنى بأسئلتها : من أكون، ومن أين جئت ، وفى أى مكان أعيش اليوم ، وأين كانت نشأتى الأولى ؟

فأجبتها فى ايجاز عما سألت ، وأنا أستغرب منها هذا الذى بدا لى لونا من الفضول !

هنالك رأيتها تنادى الصغار بصوت يتعثر اضطرابا وانطلقت بهم تعدو بعيدا !

★★★

وقد أتبعتها نظرى وأنا أعجب لأمرها ، لكنها لم تكد تغيب عن عينى ، حتى شغلت عنها ، وخلت بعد ذاك أنى نسيتها ! غير أنى ما ذهبت مرة الى المكان الذى تعودت أن أراها فيه كل أصيل ، اذ ذكرتها وافتقدتها : لقد هجرت مكانها أياما ، فهل تراها هربت منى لسبب لا أدريه ؟

ولم تك سوى أيام معدودات حتى لمحتها تختلس خطاها نحوى وهى تحسب أنى لا أراها ، فلما صارت على مرأى منى ، ولت الأدبار بادية الذعر !

وتكرر هذا منها غير مرة ، حتى أدركنى عليها رثاء

ممزوج بالعجب والتطلع ، فلقد أيقنت أنهـا مرهقـة بحالة نفسية قلقة ، تجذبها نحوى على الرغم منها ، وتسوق قدميها الى المكان الذى تعلم أنى فيه ، ثم لا تكاد ترانى حتى تـولى هاربة كأنما تفر من مطارد ٠

وكان واضحا أن فى حياتها سرا طوته عن الناس ، وهى تخشى أن يكون لى به علم ، ولعلها لو أتاحت لى فرصة التحدث اليها ، لأكدت لها أنى لا أعرف من سرها ما تكتـم ، لكنهـا لبثت طويلا دون أن تتيح لى هذه الفرصة ، وتركت نفسـها فريسة الخوف ، والهواجس ، والارتياب ! أو هذا ما خيل لى٠

★★★

ثم كان ما توقعت أن يكون :

غلبها ضعفها فسعت الى وحدها قبيل غروب ، وجلست بقربى على الرمال تغالب عبثا تلك القوة الآمرة القاهرة التى كانت تدفعها نحوى وتغريها بأن تتحدث الى ٠٠

قلت لها فى عطف :

ـ لا عليك يا فتاة ! ان كنت تظنين أنى أعرفك فأنت واهمة ٠٠

فزاد اضطرابها وسمعتها تهمس فى صوت مبحوح :

ـ وماذا لو عرفتنى ياسيدتى ؟ لقد رأيتك تحدقين فى!

فضحكت لأوهامها وقلت :

ـ كل ما فى الأمر ، أنى التفت الى لهجتك الدمياطيـة المميزة ، والى ملامحك الأليفة التى قد تشاركك فيها كثيرات من بنات الشاطىء ٠

فرنت الى تـريد أن تسـتيقن مما أقول ، ثـم همت بالانصراف لكنها ما لبثت أن عادت شبه ذليلة ، فجلست عند قدمى ، وأنا أتساءل عما اذا كانت قد غلبت عـلى أمرها

وجاءت تفضى الى بسرها ؟ ففاجأتنى بقولها فى استسلام يائس :

ــ ربما لم ترينى من قبل، لكنى أحسبك تعرفين «راوية»

فأطبقت شفتى قبل أن يخرج منهما السؤال المحرج :

ــ أأنت « سلمى » ؟

ذلك لأنى لم أكن بحاجة الى سؤال !

★★★

ولاحت لى من بعيد مشاهد باهتة ، قدم عليها العهد فأوشكت أن يطويها النسيان ٠

بدأت أذكر « راوية » ، احدى لدات الطفولة وصواحب الحداثة ٠ نشأت فى كوخ جميل فقير ، على الضفة الجنوبيه لبحيرة المنزلة ، قريباً من بيت «خالة» لى ٠ وكان أبو «راويه» صيادا شيخا ، يحمل شباكه ويمضى بها فى قارب الصيد الى عرض البحيرة ، فاذا حان المساء اب مع رفاقه ، يحملون ما رزقهم الله من أسماك البحر وطير الماء ٠٠٠

وكان من عادتى فى ذلك الزمن الحالى ، أن أزور خالتى فى بيتها على الشط يوم الجمعة من كل أسبوع ، فأسعى اليها من دمياط ، على قدمى ، فى البكرة المطلولة متجهه نحو « غيط النصارى » حيث أصرف النهار كله هناك لاعبة لاهيه ٠٠ أصيد السمك ، وأطعم البط ، وأجمع الأزهار البريه التى تنمو على الشطوط ، وأتعلم من « راويه » نسج الاكياب والحصير ، ثم أكر راجعة الى دمياط قبل أن يدركنى المساء !

وكنت أعرف أن « لراوية » شقيقة تدعى « سلمى » تكبرها بعامين ، لكنى لم ألتق بها فى ذلك العهد ، اذ كانت تصحب أباها فى رحلته الى الصيد أثناء النهار ، حيث تقوم منه مقام « الابن الصبى » لأن الرجل لم يرزق بغير اناث ثلاث : غرقت احداهن ، وبقيت « سلمى » تعين الأب فى عمله الشاق ، و « راوية » تساعد أمها فى الدار ، ثم تقضى

ما بقى من وقتها فى « شغل المناديل » و «نسج الأكياب» .

ولم يحدث قط أن عادت « سلمى » من رحلة الصيد وأنا فى الشط ، وهكذا بقيت أجهل شكلها وصورتها ، وان كنت اتخذت من شقيقتها الصغرى ، رفيقة ملعب وزميلة صبا .

★★★

وتتابعت الذكريات ..

ذكرت أنى عدت يوما الى « غيط النصارى » بعد غيبة أعوام ، وقد سألت ـ أول ما سألت ـ عن صاحبتى « راويه » فجلست خالتى تقص على ، أحداث مأساة ألمت بأهلها فشردتهم وكانت « سلمى » بطلة المأساة !

تعلق بها فتى صياد من أبناء الحى ، وبلغ من حبه لها أن باع قاربه الذى ورثه عن أبيه ، فاشترى بثمنه أساور ذهبية تحلى معصم فتاته ، وقنع من دنياه بعد ذلك بأن يعمل أجيرا فى قارب أبيها الشيخ ، شاكرا لزمانه أن أتاح له العيش بجوارها والقيام على خدمتها ! وكان يكتفى من الأجر بلقمة تسد رمقه وبسمة من « سلمى » تدفىء روحه وتنعش فؤاده ..

ولم تكن سلمى تكرهه أو تضيق بهداياه ، ولكن قلبها كان مشغولا بسواه ..

فتنها شاب من طراز آخر ، أنيق الثياب وجيه المظهر ، كان يشتغل ملاحظا فى خفر السواحل ، فيركب فرسه ، ويتنقل بين شطوط البحيرة فى تيه ودلال .. وسوطه فى يده ، وسلاحه فى منطقته ، وطربوشه مائل على جبينه ، يسخر بالشبان ، ويخيف الرجال ، ويصيد قلوب العذارى .

ولقد كانت « سلمى » من بين هؤلاء اللواتى وقعت قلوبهن فى شباكه ...

وكان فتاها الصياد ، من بين الذين لذ «للأفندى الملاحظ» أن يعبث بهم على مرأى من الفتيات ، ادلالا بقوته ، واظهارا لسطوته .

كان يحقد على الفتى بسبب حبه لسلمى ، وينكر عليها أنها لا تصده عنها ولا تيئسه منها ، فراح يلاحقه باهانته المثيرة ، ويشاغله بسوطه حيث يراه ، ويتخذ منه أداة لعبثه الساخر ، حتى جعله هزأة فى أعين الرفاق •

وقد فوجىء القوم فى ظهيرة يوم صيف قائظ ، بصرخة استغاثة مزقت سكون القيلولة الهامدة ، فاندفعوا نحو مصدر الصوت، فاذا بالفتى الصياد ملقى هناك بين القارب والشط. وقد اختلط دمه بماء البحيرة ، وتناثرت منه قطرات لوثت القارب الراسى على الضفة ، ولطخت ثوب « سلمى » التى كانت وحدها هناك ، وقد أذهلها الخوف والارتباك •

أرقد الرفاق زميلهم المحتضر على العشب الندى • وأحاطوا به يحاولون عبثا أن يمسكوا ذلك الرمق الباقى من حياته الضائعة ••

ثم جاء المحققون يسألونه فلم يرد جوابا ••

ولما سئلت «سلمى» عن الجانى ، أجابت بأنها لا تعرفه •

فما راع القوم الا أن رأوا المحتضر يتململ فى رقدته ، وينظر الى « سلمى » نظرة طويلة ، ملؤها الشك والفزع والعتاب • وهم بأن يتكلم ، لكن الكلمات ماتت على شفتيه ، وان كان الرفاق يقسمون أنهم سمعوه يتمتم وهو يحدق فى « سلمى » •

ـ كاذبة !

ثم انتهى كل شىء •••

★★★

وعدت من رحلة الذكرى ، أنظر الى الفتاة القابعة عند قدمى ، تعبث أناملها النحيلة بذرات الرمال ، وتنظر الى الماء المخضب بحمرة الشفق ، فى رعب ظاهر •

فلم أملك الا أن أسألها :

ـ هل يذكرك هذا الماء المخضب ، بمشهد رأيته من قبل؟

فعجبت اذ سمعتها تقول :

ـ أجل ، يذكرنى بما لست أنساه ٠٠ يذكرنى بدم الشهيد ممتزجا بماء البحيرة عند الشط البعيد ٠

قلت وقد انتقلت الى عدوى وجومها :

ـ أراك نادمة ٠

قالت فى ضعف :

ـ وما يغنى الندم ؟ بل حزينة متعبة ، مثقلة بالسر الذى حملته أعواما كما أحمل الداء ! أن مصرع الشهيد يشخص أمامى فى كل مكان ، ونظرته الأخيرة تطاردنى حيثما رحت، وشبحه يتشبث بى محتضرا ، ويناديني ليل نهار :

يا كاذبة !

فأشحت بوجهى عنها وأنا أسأل :

ـ وهل كنت حقا كاذبة ؟

فصاحت بملء خزيها وندمها :

ـ أجل ، كاذبة كاذبة ! لقد رأيته بعينى هاتين ، ذاك « الأفندى الملاحظ » يهوى على أم رأسه بكعب بندقيته ، ثم يطلق العنان لجواده تاركا ضحيته غارقة فى الدم الصبيب ٠

وكان ذنبه ، أنه سعى الى فى تلك الظهيرة المشئومة ، يقدم الى « شالا من الحرير الزاهى » لأدثر به اذا هبت ريح ٠٠ فلم أكد أمد يدى لأتلقى هديته حتى فوجئت بالضربة الخائنة الغادرة تلقى الشهيد صريعا تحت قدمى !

ثم لم أر الجانى بعدها أبدا ٠٠

قلت :

ـ ولم كذبت ؟

فأجابت وهي تضحك في خبال :

ــ وهل كنت أدرى ؟ قضاها الله على ، ومن ذلك الحين وأنا أهيم على وجهى فى البلاد ، أفر من اللعنة ، وهى أبدا من ورائى وأمامى ، وعن يمينى والشمال !

وزفرت زفرة خلت معها أن كبدها تصدعت ، ثم سارت فى بطء الى الماء • فلحقت بها وقد خشيت أن تلقى بنفسها فى أحضان الموج ، لكنها ما لبثت أن ابتعدت عن البحر وهى تردد فى يأس وقنوط :

ــ كلا يا سيدتى ، ليس لمثلى أن ينعم براحة الموت • فماتزال أمامى أعوام طوال عراض ، من الحزن ، والندم والتكفير •

• الوصية

« ... ثم عادت تقول فى صوت ممزق :

ـ لا أريد أن أموت قبل أن أودع هذه الوصية امانة في عنقك ! أن ابنى يرجو موتى ، فلتكونى أنت من بعدى صوت الحق الذى يذكره بالضحية التعسة التى ألقى بها فى حمأة العار ! »

كانت فترة خاملة من فترات الموسم ، لا حرث فيها ولا رى ولا جنى ، وانما هى أيام انتظار مشوب بالقلق والترقب .. لا هم للقرية فيها الا هذا القمح الذى نضج واستوى على سوقه وشارف الحصاد !

وكان نفر من أهل القرية قد هجروا مضاجعهم فى الدور ، وأقاموا بالغيطان يحرسون كنزهم الذهبى أن يطوف به فى الليل طائف يذره هشيما ، فلما أسفر الصبح اتخذوا من الأرض الطيبة مرقدا ، وراحوا يلتمسون غفوة تحت ظلال أشجار السنط والجميز الضخمة المعمرة .

وارتفعت الشمس وهم رقود هامدون أو يكادون ، ثم تململوا فى مراقدهم بعد أن صرخت بطونهم الخاوية صرخة الجوع ، وهبوا فجأة يتساءلون :

ـ لعلهن مازلن نائمات فى الدور ، غافلات عن الجياع فى الغيطان •

وأضاف شيخ عجوز :

ـ عليهن لعنة الله ! •• أهـذا جزاء الـكادحين الذين يبيتون بالعراء كى يحرسوا خبزهن وخبز الأولاد ، ويملئوا الأجران والصوامع ؟

وأمسكوا بغتة •• فقد لاحت لهم على البعد أشباح جموع تتدفق صوب دوار العمدة • وردد الفضاء العريض أصداء أصوات مختلطة ، لم يستطع الزراع أن يميزوا فيها سوى ضجيج لاغب غير واضح ولا مفهوم !

وهموا بالانطلاق الى القرية ، لكنهم ما لبثوا أن تراجعوا عندما لمحوا طلائع النسوة عند مشارف الغيطان ، يسعين بطعام الفطور •

ووضعت النسوة ما على رءوسهن ، ثم جلسن يلتقطن أنفاسهن بعد أن قطعها السعى الحثيث المجهد ••

ونسى الرجال جوعهم ، فتركوا الطعام حيث هو لم يمسوه ، وحدقوا فى النسوة يسألون فى قلق : ما الخبر ؟ أجابت احداهن :

ـ شغلنا عنكم بفضيحة « أنعام »

فهب فتى منهم مذعورا كأنما لسعته عقرب ، وأمسك بالمرأة يهزها فى عنف وحشى وهو يهدر :

ـ قطع لسانك ! ان مداس قدميها لأطهر من عصابة رأسك !

ثم انطلق يعدو ، دون أن يجرؤ أحد على أن يوقفه أو يلحق به ••

★★★

وظل القوم برهة يحدقون واجمين فى الفتى المندفع كالسهم ، حتى اذا وارته ثنية فى أطراف المزرعة ، التمسوا من نسائهم جلية الخبر .

واستأنفت المرأة حديثها قائلة :

ـ مسكين ! انى سامحته ، فما عهدنا على ابنة عمه سوءا ، لكنه قضاء الله المحتوم ..

وأمسكت عن الكلام هنيهة ريثما أفاق القوم من دهشة المفاجأة ، ثم مضت تروى الذى كان :

ـ لقد سيقت «أنعام» فى غلس الصبح الى دوار العمدة ، متهمة بسرقة سوار ذهبى تملكه زوجة «أحمد أفندى» شقيق زوج أنعام الذى مات منذ شهرين وبعض شهر ..

ومن دوار العمدة ، نقلت المتهمة الى المركز فى حراسة الخفراء ، حيث حجزت فى الحبس تحت التحقيق !

وتم ذلك كله فجأة ، وفى وقت قصير ، وعلى مرأى فى أهل القرية ومسمع ..

فتمتم الرجال :

ـ سترك يارب !

وهمهمت النسوة :

ـ الله موجود ...

ـ وأكملت الراوية قصتها :

ـ لم تكن الشمس قد طلعت تماما عندما سمعنا ضجة تعلو آتية من دار « أحمد أفندى » . وحسبناها أول الأمر ، من ذلك النوع الذى ألفناه عندما يحضر « الأفندى » ليصطاف فى القرية ، فلا تكف زوجته عن انتهار أمه «العجوز المخرفة » وايغار صدر الزوج عليها حتى يزجرها فلا تبرح « قاعتها » فى أسفل الدار كيلا تزعج زوجته لكننا سمعنا

أحمد أفندى ينادى خفير الدرب ، ويدعوه أن يحضر ليضبط جريمة سرقة !

وذهبت بنا الظنون كل مذهب ، الا أن تكون « أنعام » هى السارقة ٠

لذلك كانت دهشتنا لا توصف ، عندما رأينا الخفير يغيب لحظة فى الدار ، ثم يخرج وهو يسوقها أمامه ، قاذفا اياها بأشنع التهم ، داعيا أولاد الدرب أن يفدوا ليتفرجوا على السارقه ، عندما يكبل الضباط معصمها المزين بالسوار المسروق !

وتركت كل منا ما بيدها ، واندفعنا وراء « أنعام » فى موجات متلاحقة ، ونحن نكذب عيوننا ولا نصدق أن هذه الشابة الأرملة الحلوة ، يمكن أن تقترف جريمة السرقة . وقد عاشت عمرها شريفة طاهرة ، لم يلحق بها دنس أو غبار ٠

★★★

وفى دوار العمدة سمعنا عجبا :

قال « أحمد أفندى » : انه أحس بعد الفجر بحركة مريبة فى القاعة الصغيرة المتصلة بغرفة نومه ، فتسلل ليرى هذه المجرمة التى أطعمها من جوع وأواها من تشرد ، وزوجها من أخيه الوحيد ، واقفة أمام خزانة ثياب الست حرمه ، تجرب سوارا ذهبيا على مقاسها ! فلما رأته فرت مذعورة من الباب الثانى للقاعة ، وقد أذهلها الارتباك فلم تحاول التخلص من جسم الجريمة فى معصمها ٠

وأمسك بها ونادى خفير الدرب ، الذى سمعها بأذنيه تستغفر الأفندى ضارعة اليه ألا يفضحها ، ثم تستنجد بحماتها كى تنقذها من العار ٠

ونظر العمدة الى السوار فى معصم « أنعام » ثم سألها

سؤالا واحدا : هل هى التى لبسته فى معصمها ؟ فلما اعترفت بذلك لم يدعها تتم كلامها ، بل أمر بها فسيقت الى المركز ، وهناك صدر الأمر بحبسها ، وعاد الموكب الى القرية بعد أن أغلق الحراس الغلاظ باب السجن على المتهمة .

★★★

ولبثت القرية أياما تصغى فى لهفة الى ما يترامى اليها من أنباء التحقيق ، وتتبع تطورات الموقف فى حرص واهتمام ، وكان أوان الحصاد قد آن ، وبدأت جموع القرويين تهجر القرية مع مغرب الشمس الى الحقول ، حيث تضم القمح وتغمره فى السحر الرطب والفجر الندى . وقد افتقدت القرية فى موسمها ذاك ما اعتادت أن تسمعه فى مثله كل عام من أغانى الحصاد ، وخرست الأصداء فلم تعد ترجع أصوات الفتيات وهن يغنين فى الليل الساجى :

يامه ياليلى على ضم القمح بالليل !

ليلى ياليلى !

لقد كان القوم فى شغل عن الطرب والغناء بقصة السارقة يضيفون اليها كل ليلة جديدا .. ويرددون مايتسلل الى آذانهم من خفايا توارت خلف الجريمة الظاهرة !

وفى الأجران ، كانت مجالس السمر تعقد فوق أكوام الحصيد لتصغى فى لهفة الى سمار الحى وهم يشبعون فضولها بغرائب الأسرار !

حدثوا أن التهمة ثبتت عليها .. فلم تجد النيابة حيلة فى المطالبة بعقابها بعد أن اعترفت المتهمة بأن السوار لحرم الأفندى ، ثم لم تستطع أن تقدم تفسيرا لوجوده فى حوزتها .

وقيل ان حرم الأفندى قد أشفقت على المسكينة آخر الأمر فتنازلت عن حقها قبلها ، لكن النيابة مضت فى الدعوى ، حتى صدر الحكم بحبسها ستة أشهر مع ايقاف التنفيذ !

واختفت « أنعام » على أثر ذلك من القرية ، وقيل انها

لحقت ببعض ذوى قرباها فى احدى قرى القليوبية ، كيما تدفن عارها هناك !

ولكن ، بقى ابن عمها فى القـرية يذيع ما يعرف من أسرار الجريمة ، ويهدد بالانتقام للبريئة المظلومة ..

كما بقيت « أم أحمد » الهرمة العجوز ، تهذى بما تخشى على ولدها (الأفندى) من عقاب الله المنتقم الجبار ..

واستطاع الرواة أن يجمعوا خيوط القصة من هنا ومن هناك حتى ظفروا بها أخيرا محكمة النسج ، وراحوا يملأون بها مسامر القرية .

وكنا ـ نحن بنات القرية الصغيرات ـ لا نفهم كل الذى نسمع ، بل بدا لنا بعضه أشبه برموز يقصر عنها ادراكنا . ويعجز عن تفسيرها . كل الذى وعيناه أن السـارقة لم تك سوى ضحية مؤامرة ، أحكمت الشباك حولهـا فلم تسـتطع منها فكاكا !

وكان «أحمد أفندى» الكهل العقيم هو الذى دبر وأحكم !

أرجفوا أنه قدم السوار لضحيته ليلة الحادثة ، فتقبلت الهدية بالشكر وعرفان الجميل ، وأمضت سهرتها فى قاعة « الأم » تدعو الله أن يهب « الأفندى » على الكبر ولدا .. حتى اذا لاح نور الفجر هبت من نومها وانطلقت الى المخزن لتأتى ببعض الدقيق والزبد كى تعد فطورا شـهيا للأفندى والست حرمه ..

وهنـاك فاجأها وطلب اليهـا أن تبقى أبدا فى الدار للخدمة ، بعد انقضاء عدتها . فرفضت معتـذرة كارهة ، فلما أنذرها بالشر لجت فى عنادها وصارحته بأنها لن تبقى فى الدار بعد ساعتها هذه ، فما عاد لها مكان فيها منذ مات زوجها عن غير ولد .. وانما رضيت أن تبقى فيها لتؤنس وحشة الأم العجوز فى شيخوختها التعسة . أما وقد صـار الأمر الى مساومة على حياتها ، فانها ماضية فى التو الى غير رجعة .. والله للأم العجوز .

واحتدم الجدال بينهما ، وفيما كانت تهم بانتزاع السوار من يدها لترده اليه ، سمعا خطوات الزوجة والأم تقترب منهما ، فاذا به يمسك بمعصمها فجأة ويصيح بصوته الغليظ :

ـ ويل لك يا لصة ! ..

ولم تذعن الفتاة للتهمة الظالمة ، فحدثت الزوجة والأم بكل ما كان .

فما راعها الا أن صفعتها الزوجة بما تعرف من اشمئزاز زوجها من هذه الخادمة الوضيعة ! ..

هنالك أسقط فى يد المسكينة ، ولم يشفع لها أن الأم أعلنت أنها تصدق كل كلمة مما قالت . وأقسمت بالله أنها رأت بعينها السوار فى معصم الفتاة قبل أن تنام !

وماذا تغنيها هذه الشهادة ، والأم متهمة من ابنها وزوجه بالتخريف والخبال ؟ ..

بل أى شىء يمكن أن يظهر براءتها ، أمام شهادة الزوجة لزوجها ؟

ثم ، من تكون هذه القروية اليتيمة والأرملة الفقيرة التى تعيش فى كنف شقيق زوجها شبه خادمة ؟

من تكون هى ، أمام أفندى قد الدنيا يشغل منصبا ضخما ؟

وهكذا استسلمت المسكينة لمصيرها التعس دون مقاومة تذكر ، وعجزت ـ بسذاجتها وطهرها ـ أن تدرك أبعاد المأساة .

وكان كل الذى فعلته وهم يمضون بها الى الحبس ، أن توسلت الى « العجوز الطيبة » أن تشهد ببراءتها لدى ابن عمها الذى أحبها الى درجة أن غفر لها زواجها من سواه ،

وقد ظل على العهد مقيما حتى مات الزوج وآن له يظفر بالتى أحب بعد طول حرمان ٠

ورضى ان تقيم مع حماتها ريثما تستكمل عدتها ٠٠ حتى اذا لم يبق على انقضائها سوى أسابيع معدودات كانت الصدمة القاضية ٠

وقد أقسمت الأم للفتاة أن تنفذ وصيتها ، وأن تشهد ببراءتها ما عاشت ٠٠ فاغرورقت عينا المسكينة بدموع الشكر ، واستسلمت لقضاء الله ٠ كأنما كفاها أن فى السماء العليم ببرائتها وآن لطف بها فسخر لها هذه العجوز الطيبة تشهد لها عند ابن العم : المخلوق الوحيد الذى يعنيها أن يعلم أنها بريئة !

★★★

ومضت الأعوام عاما فى اثر عام ، وتاهت « أنعام » فى غمار الزمن ، فلم يعد أحد من أهل القرية يذكر قصتها الفاجعة !

وكذلك نسيتها أنا فيما نسيت من ذكريات القرية ، وان بقى طيف باهت متضائل يعاودنى كلما رأيت « أحمد أفندى » ٠ فى العاصمة ٠٠

★★★

حتى كان منتصف يونية من عام ١٩٤٣ ، وقد سعيت الى القرية أحيى ذكرى فقيدة لى غالية ٠٠ وجلست فى دارنا يومئذ أجرع كأس حزنى على مهل ، حين لمحت « الشيخة الطيبة أم أحمد » تدب على الأرض متوكئة على كتف غلام من فقراء الحى ، وقد وهن العظم منها واشتعل رأسها شيبا ، ولم يبق لها من نور العين سوى شعاع خاب ٠٠

قلت لها وأنا أغالب أساى :

ـ ما كان لك يا أم أحمد أن تتكبدى عناء زيارتنا اليوم فما فينا من يجهل اعزازك لفقيدتنا ٠

أجابت وهى تزدرد ريقها :

ــ أعرف ذلك يا بنتى ، لكنى ظللت أنتظر مقدمك عاما بأكمله ، ثم خشيت أن ترحلى عن القرية قبل أن أفضى اليك بوصيتى ، وربما لا يحين موعد قدومك فى موسم قادم وانا بين الأحياء .

وأدركها الاعياء فسكنت لاهثة ، ثم عادت تقول فى صوت مجهد : أمانة فى عنقك ! ان ابنى يرجو موتى لأننى الشاهدة الحية على جريمته التى اقترفها ، فلتكونى أنت من بعدى صوت الحق الذى يذكره بالضحية التعسة التى ألقى بها العار ، لعله يكفر عن خطيئته قبل أن يعرض على الحاكم القهار !

قلت راثية مواسية :

ــ أفعل يا أمى ..

فتهلل وجهها الشاحب المغضن ، وتمتمت فى ارتياح :

ــ الآن فليرحمنى الموت !

★★★

ويخجلنى أن أعترف اليوم أنى شغلت عن وصية الأم المسكينة ، حتى اذا بلغنى نعيها منذ قريب ، شعرت بوقر الندم .. وقمت أروى المأساة على مسمع الدنيا ، أداء للأمانة الصعبة ، وارضاء لتلك الروح التى أشعر بها حائمة حولى تريد ألا يلقى ابنها ربه مثقلا باثمه الغليظ !

ثم لا أكاد أفرغ من الكتابة حتى يلح على سؤال واحد :

ــ هل انتهت القصة يا ترى ؟

فيخيل الى أنى أسمع صوت الأم يجيبنى من وراء القبور :

ــ كلا .. حتى يدفع الثمن !

• الخاسرة

« لم تبق منها الأيام والليالى سوى حطام كهلة فانيـــة ضريـرة ، تنزوى فى ركن من الضريح الأحمدى ، هاذية القصة أم خاسرة ، كان لهـا ولد فعدمته ، وهو محسوب فى الأحياء ! »

حملته وهنا على وهن لتسعة أشـهر طـوال ، لم تكف خلالها لحظة عن الابتهال والتضرع الى الله ، كيما يهبهـا مولود ذكرا يرد اليها حقها فى الحيـاة ، وينصفها من ظلم الأيام ، وينسيها ما لقيت من مذلة وهوان .

وحين جاءها المخـاض وبشرت بالمـولود ، اغرورقت عيناها بالدموع ، ثم استغرقت فى اغفـاءة هنيئة ، لم تذق مثلها منذ ثلاثة عشر عاما !

لقد استجاب الله الدعاء وفتح أمامها من رحمته بابا ظل مغلقا فى وجهها من يوم أن خرجت الى الحيـاة غـير مرغوب فيها من أحد ! اذ ماتت أمها ساعة وضعتها فى ركن مظلم من غرفة رطبة بأحد أزقة « المحلة الكبرى » وتركتها من خلفهـا منبوذة مهملة ، بعد أن أوصت بها زميلة لها أرملة ، جمعتهما تلك الغرفة الواحدة وقرب بينهما الفقر والعوز . وقد حملت الأرملة وليدة صاحبتها وطافت بها على من تعرف من أقارب

المتوفاة ، فكفلتها خالة لها فقيرة معدمة ، ظلت تستجدى لها قطرات من لبن المراضع فى الحى ، فاذا شحت الأثداء أو ضنت على الصغيرة بألبانها ، وقفت الخالة على قارعة الطريق تستجدى جرعة من لبن الماعز أو الحمير ، أو ذهبت بها الى مقاهى المدينة لعل فيها من يجود بثمالة من شراب على رضيعة تكاد تهلك جوعا !

ومن عجب أن الصغيرة لم تمت ، بل شبت ونمت ، وعرفتها أزقة « المحلة » وحاراتها : صبية يافعة ، فيها سذاجة تقرب من البله ، تمازجها طيبة ووداعة وقدرة على احتمال مشقة العيش وشظف الحرمان وعنت الدنيا ٠

ورأى فيها بعض الباعة الجائلين « لقطة » تصلح زوجة مثالية لولده الذى يشتغل عاملا بمصنع النسيج ، فزفت اليه بلا ثمن ، وعاشت فى الدار خادمة بلا أجر ، تحمل الاعباء دون أن تكل ، وترضى بالكسرة الجافة والثوب الممزق دون أن تشكو ٠ وقد زادها العقم ذلا على ذال ، وأهدر كل حق لها فى الحياة ، فلم تضق بعيشها حين جاء زوجها ـ وقد زاد أجره فى المصنع ـ بأخرى تلد له ولدا ، بل رضيت أن تكون للزوجة الجديدة ولأولادها خادمة مخلصة !

ثم ٠٠ حملت من بعد عقم سنين ، ووضعت مولودا ذكرا فخيل اليها أنها تولد معه من جديد !

***

وأفاقت من اغفاءتها الهانئة فأنكرت بعض ما ترى : كان أهل الدار يفدون لرؤية الوليد ، فلا يكاد أحدهم يلقى عليه نظرة حتى يشيح عنه بوجهه مزورا ٠ وقد كذبت عينيها أول الأمر لكنها ما لبثت أن ارتابت فى شأن الوليد حين حمله أبوه لحظة ثم ألقى به وهو بادى التجهم ٠ هنالك سألت القابلة :

ـ هل فى صغيرى عاهة أو نقص ؟

فأجابتها فى صراحة وترفق معا :

ـ كلا يا امرأة ، لا عاهة ولا نقص فاطمئنى ! كل مافيه أنه غير جميل الصورة ، وما ذاك بالذى يعيب الرجال !

ورنت الأم الى طفلها وهى تعجب كيف لم تر فيه دمامة ولا قبحا ! • وظلت تتأمله طويلا وعجبها لا يزايلها ، فما تقع عيناها منه الا على صورة حلوة حبيبة !

وتغيرت حياتها كما قدرت ، لا فى نظر الناس ، فقد ظلت فى موضعها الذليل من الدار لم تتجاوزه الى سواه ، ولكنها بدأت تستمرىء لذة مسكرة حين تلقم الوليد ثديها وتغذوه بلبنها ، فتؤمن أن من حقها منذ اليوم أن تعيش ، مادام فى الدنيا من يستمد حياته منها •

واضاء وجهها الذابل نور الايمان ، وهزت أعطافها نشوة الرضى ، وكلما ازداد زوجها نفورا من ولده وانصرافا عنه ، ازدادت هى له حبا وبه تعلقا ! وكلما سمعت القوم يتندرون بدمامته هزت رأسها فى غير مبالاة ، وفاض قلبها عليه حنانا ورحمة !

حتى اذا شب وصار غلاما ، حملته الى مدرسة الحى ، وتوسلت الى الناظر أن يقبله عنده ويعلمه مثل أخويه لأبيه ! فرق قلب الرجل لها وسار بابنها الى حجرة الدارسة • وهى تتبعه بقلبها ، وأما عيناها فقد امتلأتا بدموع الفرح والشكر •

وذاع فى الحى أن الغلام الدميم قد غلب أخويه ـ وهما أسن منه ـ وبذ أقرانه جميعا ، فهو أوعاهم للدروس وأقدرهم على حفظها ، وقيل فيما قيل ، ان المدرسة تنوى أن ترحله على نفقة الوزارة الى طنطا عندما يكمل المرحلة الأولى من تعليمه •

★★★

ولم يكن هذا النجاح خيرا محضا ، فلقد بدأت زوجة الأب تضيق به وتراه نحسا على ولديها الغاليين اللذين انطفأ نجمهما منذ وضع قدمه فى المدرسة • وأسرفت فى التجنى

فزعمت أن هذا الصبي هو المسئول عن خيبة ولديها وفشلهما في الدراسة . ثم مازالت بالزوج تغريه وتحتال عليه ، حتى أخرج ابنه الثالث من المدرسة . كيما يبقى الولدين العزيزين من شره . ولم يدر بخلد الأب حين فعل بالولد ما فعل ، ان الأم المنبوذة سوف تحتج على مثل هذا الاجراء أو تنكره ، فما عهدها الا هادئة راضية قانعة طائعة ، تفعل ما تؤمر به وتخضع لما يراد منها كأن ليس لها من أمرها شيء ! فما كان أشد عجبه وعجب أهل الدار ، حين رأوا هذه المخلوقة الساذجة الوديعة ، تعترض زوجها وهو في طريقه الى المصنع ، لتناقشه الحساب عما فعل بابنها !

فلما لم يكترث لها ، هاجت كوحش جريح ، ومضت تقذف الرجل وزوجته باللعنة ، ثم تحمل ولدها وتنطلق من الدار الى غير رجعة !

لقد احتملت كل شيء حتى ما هو أقسى من الموت .. احتملت أن تعيش في مزجر الكلب ومربط الدواب ، تقتات مما يلقونه اليها من فضلات ، وتغمس لقمتها بالعرق والتعب والهوان ، وتشرب عليها من كأس المر والعلقم ، وكانت بحيث تطيق ما هو شر من ذلك وأمر ، مادام الأمر لا يتجاوزها الى ابنها الغالي ، واما أن يمسوه بالأذى وينقموا عليه أنه نجح في دراسته ، فما ذلك عندها بالذى يحتمل أو يطاق ..

★★★

خرجت به الى غير مقصد ! كل ما كان يعنيها أن تفر به من كيد أهله ، وما عدا ذلك يهون . وأدركها الليل وهى منبوذة بالعراء خارج البلدة ، فبدا لها أن تقضي ليلتها في استراحة محطة السكة الحديد ، لكن الحارس أبى عليها المأوى ، وأنذرها أنه سوف يغلق الاستراحة عندما يبرحها آخر قطار ..

وجاء القطار الأخير يشق أحشاء الليل ويمزق بحشرجته الصمت العريض المنتشر فألفت الأم نفسها تصعد اليه دون

تفكير أو تدبير ، ثم تنزوى فى عربة البضاعة الملحقة به ، وتهيىء لغلامها من أحضانها مرقدا ، ثم تجلس ساهرة تنتظر .

وسألها عامل القطار : « الى أين ؟ »

فأجابت وهى لا تكاد تعي ما تقول : «الى السيد البدوى!» وأشرقت أساريرها وهى تلفظ باسم ولى الله ، وسرها انه هناك ، تلوذ به وتأوى اليه .

وعندما بلغت باب الضريح أذن لها بالدخول ، فصلت ركعتين شكرا لله ، وجيء لها بطعام مما يجود به المحسنون ، فآثرت ولدها به حتى اذا شبع ونام ، أكلت ما تبقى من عشائه ، ثم رقدت الى جانبه ونامت ملء الجفون !

★★★

مضت أعوام ستة ، والأم مقيمة في منزل شيخ الجامع البدوى ، ولا تدرى ماذا تفعل لتكافىء هؤلاء القوم الكرام الذين آووها من تشرد ، وآمنوها من خوف ، وأطعموها من جوع .

كانت تمضي النهار كله عاملة في المنزل ، تخدم الصغير والكبير فى ولاء وتفان ، فاذا ولى النهار اعتكفت في حجرة خصصت لها فوق سطح البيت ، فتفرغت للصلاة والتعبد ، ثم وهبت صلاتها ودعاءها لاثنين من الناس : هذا الولد الحبيب الذى أوشك أن يتم دراسته الثانوية بتفوق ظاهر . ثم هذا الشيخ الكريم الذى أصغى الى قصتها يوم لاذت بالضريح المبارك ، ثم هيأ لها من داره مكانا طيبا ، وتولى رعاية ولدها وأشرف على تعليمه ، ابتغاء مرضاة الله .

وكانت الأم تترقب اليوم الذى ينال فيه ولدها شهادة البكالوريا ويوظف كاتبا فى الديوان ، كى ترحل عن بيت الشيخ الذى أضافها أعواما طوالا . لكن الابن ــ وقد صار أفنديا ــ استمهلها أربعة أعوام أخرى ريثما يدرس فى العاصمة وينال شهادة الجامعة . ووقف الشيخ الكريم الى

جانب الطالب المجتهد الطموح ، يؤيده ويشجعه ، ويعلن تبرعه بجنيهين شهريا يدفعان للطالب ما أقام بالقاهرة .

وهنا لم تجد الأم ما تقوله وقد الجمت الأريحية لسانها، فأكبت على يد الشيخ تقبلها فى خشوع .

☆☆☆

ومضت الأعوام والأم مرهقة بعجزها عن شكر ذاك المنعم المتفضل ، فلما أذاعت الصحف نبأ تفوق ولدها فى امتحان الشهادة العالية ، هجس فى خاطر الأم هاجس خفى : وماذا لو تزوج ولدها بابنة الرجل الذى يدين له بنجاحه وحياته ؟!

وكأنما وجدت فى هذا ما يريحها من عبء حملته أكثر من عشرة أعوام ، فاندفعت ـ وقد ذهلها الفرح وأفقدها ما أكسبتها التجارب والمحن من تعقل واتزان ـ تزف بشراها الى أهل الدار : لقد آن لها أن تسد دينا أرهقها العجز عن سداده ، وحان الوقت الذى تستطيع فيه أن تؤدى ما عليها من حقوق لأكرم قوم عرفتهم الدنيا .

وابتسم الشيخ لسذاجتها وطيبتها ، وأما بقية أهله فقد أخذتهم نشوة الأمل القريب فى زواج ابنة لهم من حامل شهادة عليا . وأطرقت الفتاة حالمة ، تتمثل دنيا جديدة مرموقة .

ونسيت ، ونسى أهلها معها ، دمامة الشاب ، وصلفه ، وغروره ، ولم يذكروا الا أنه حامل شهادة عليا ، تفتح أمامه آفاقا رحبة ، وتعده بالمستقبل البسام !

☆☆☆

وجاء « العريس » المنتظر وقد زاد صلفا على صلف ، وغرورا بشهادته فوق غرور ، فسره اقبال القوم عليه وترحيبهم به ، وأصغى الى مشروع الزواج فى رزانة متكلفة ، ثم راح يستمتع بمكانه الجديد كخطيب مرغوب فيه ، تاركا لأمه لذة النظر اليه من بعيد وهو مندمج فى الأسرة ، مستأثر بعنايتها ، متصدر مائدة طعامها فى الغداء والعشاء !

وانقضت عطلة الصيف ، وكان الشاب قد رشح خلالها لوظيفة طيبة فى طنطا ، لكنه لم يكد يسمع عن مكان خال لمذيع شرقى فى محطة لندن العربية ، حتى يسعى الى المعهد البريطانى ووضع كل كيانه تحت تصرف الانجليز ، فى الوقت الذى امتنع فيه كثيرون عن التعاون مع قوم يستعمرون البلد ويسلبونه حقه فى الحياة الكريمة !

وتلقت الأم النبأ فى دهشة ووجوم ، ووقفت أسرة الشيخ الى جانبها فى هذه المرة ، تتوسل الى الشاب ألا يمضى!

لكنه مضى ..

وترك من ورائه أما تشعر بثكل وشيك ، وفتاة تحارب اليأس فى قلبها وتحاول عبثا أن تبقى على أحلامها ، وشيخا يدارى همه ويتحامل على نفسه ، ليتجاهل الطعنة الخفية المسمومة التى يوشك أن يتلقاها من يد تلقت خيره وبره !

أجل ، مضى الى لندن .

وأعلنت الحرب عقب وصوله مباشرة كأنما كان واياها على موعد ، كيما تقطع هذه الصلات الواهية التى تربطه بوطنه الأول ، وتمزق الشباك الموهومة التى خيل له غروره أن الشيخ الكريم وأسرته قد نسجوها لاصطياده زوجا لابنتهم، مغررين بأمه الساذجة البلهاء !

وهكذا انقطع كل ما بين الشاب وعالمه القديم ، فأقبل على دنياه الجديدة بكل حماسه ، وكل ضعفه وصلفه ، متخليا عن وطنه ومن له فيه .

وأى خير يذكره لهذا الوطن حتى يبقى عليه ؟

أما أذلت مصر طفولته ، وتندر أهله بدمامته ، وأسرف زملاؤه فى المباهاة أمامه بآبائهم وأصولهم ، يريدون بذلك أن يعيروه بضيعة صباه وهوان منبته ؟!

لكم أسرف على نفسه فى الجد والاستذكار راجيا أن

يكسب بالتفوق على أولئك الزملاء ما يدارى نقصه وينسيه عقدته ! لكنهم أبو ألا أن يشعروه بأنه دونهم أبدا ولو التمس أسباب السماء بسلم !

وكان أشد ما يوجعه ويهينه ، سلوك زميلاته فى الجامعة معه • فهن بين راثية مشفقة ترحم ضعفه وتشفق على دمامته ، وأخرى تصد عنه في ازورار وترفع، وثالثة حريصة على أن تحرمه ميزة التفوق التى لا يملك سواها ، فهى تقهره بذكائها وقوتها واعتدادها بشخصيتها •

ثم ••• ماذا له في مصر وأى رابط يربطه بها ؟

أهذه الأم الذليلة البلهاء التى تعيش فى غير قومها لقاء لقمة العيش ، ثم تتوهم بعد ذلك أنها تدين بالحياة لمن اتخذها خادمة بغير أجر ؟

أم ذاك الأب الذى ضيعه صغيرا ونبذه غلاما فأورثه ذل الأبد ودفعه الى الحياة أشبه بلقيط ؟

أم تلك الفتاة التى طالما أعفت عينيها من النظر اليه ، وأغفلت أذنيها عن سماع حديثه ، وتجاهلت رغبته فيها وتذلله اليها ، حتى اذا نال شهادته العليا تعلقت بها لا به ، وعادت ترى فى الشريد الدسيم فتى أحلامها ؟!

أم ذلك الشيخ الذى ما فتىء أبدا يذكره بأنه عاش وتعلم على صدقاته واحسانه ، وهو ما تصدق ولا أحسن ، الا لكى يعد لفتاته زوجا اذا فاتها الخطاب ؟!

أم تلك الجامعة التى جحدت تفوقه فأبت عليه وظيفة بها ، محتجة بأنه ضعيف الشخصية ، وزاعمة أنه سقط فى « كشف الهيئة ؟ »

أم ؟ •• أم ؟ ••

اللهم لا ، ولا ••••

كيف مضت سنو الحرب عليه وعلى من ينتظرونه في مصر ؟ أما هو فقد رضى عن حياته الثانية ورضيت عنه ، وكانت آية رضاها أو قدمت اليه زوجة افرنجية ، بيضاء البشرة ذهبية الشعر ! واستقر به المقام ، وطاب له ، فلم يعد يرى الا ضاحكا متهللا يتغنى بقوله :

ليت أصحابي بمصر شهدوا

هذه الزوجة أو هذى النعم ؟

وأما الذين بمصر ، فقد أقاموا على جمر القلق وأشواك الشك ، ينتظرون أوبة المسافر ، ورجعة النازح الى وطنه • وقد تعللت الأم حينا بأن الحرب وحدها هي التى عوقت رسائله وأخرت أوبته ، فلما وضعت الحرب اوزارها ولم يعد ، جن حزنها وعدته مفقودا فراحت تبكيه حتى استنفدت عينيها أو كادت •

وذات مساء ، سمعت وهى فى حجرتها منطوية على أحزانها ، ضجة عالية فى الدار ، وأقبل عليها أهل البيت يهنئونها ، فهذه صحف اليوم تزف بشرى عودته الى مصر عن قريب ، فى طريقه الى منصب هام باحدى المستعمرات الانجليزية فى الهند •

فأذهلها الفرح حينا ثم قامت تتخبط فى سيرها ، ساعية الى مستشفى الرمد ، تتوسل الى الطبيب الرحيم أن يبقى على بصيص من النور فى عينيها ، ريثما ترى ابنها ولو مرة واحدة !

وأفلح الطب ، فبقى لها شعاع ضئيل تستطيع أن تميز به وجه من أحبت • وأقامت تستبطىء الغد وتعد الدقائق والثوانى فى انتظار ولدها العزيز ، مشفقة على ذلك الرمق الباقى لها من الحياة ، ومبتهلة الى الله أن يحفظه عليها أياما معدودات ، تستقبل بعدها العمى والموت راضية ••

واستجاب الله لدعائها فعاشت ••

عاشت لتسمع أن ولدها مر بمصر عابرا فى طريقه الى منصبه ، دون أن يعرج على أمه لتراه !

عاشت لتسمع أنه خلع جنسيته المصرية وتنكر للأهل والوطن ، وأقام بينه وبين حياته الأولى سورا أصم ، من الجحود والنكران !

ولما أرادت أن تشتفى بالبكاء ، عز عليها الدمع بعد أن تسربت بقية النور من عينها واكفهرت حولها الظلمات !

لم تبق منها الأيام والليالى سوى حطام كهلة فانية ضريرة تنزوى فى ركن من الضريح الأحمدى ، هاذية بقصة أم خاسرة كان لها ولد فعدمته وهو يعد محسوب فى الأحياء !

• القاتلة

« •• وسيقت الى السجن مكبلة بالأغلال وتبعتها جموع من العشيرة ، تبارك اليد الطاهرة التى قتلت الشيطان ! وكذلك تبعها زوجها المفجوع فى أخيه ، صامتا مطرقا لا يجد ما يقوله لبنت الخال التى أحبها ملء قلبه ، فدفعت حياتها وحياته فدية لشرفه ! »

لم يكد أحد يعرف عنها شيئا قبل أن تظهر على مسرح الأحداث لتلعب الدور الأول فى المأساة الرهيبة التى هزت مديرية « أسيوط » من أقصى الشمال الى أدنى الجنوب ، وشغلت الدوائر القضائية فيها قرابة عام ، فقد واراها الخباء أعواما عشرة ، وأقامت حولها تقاليد قومها وعشيرتها أسوارا عالية منيعة ، يسهل على الغريب اقتحامها بحال ••

حتى اسمها ، كان على ألسنة الأجانب الغرباء حراما ، لأن له حرمة تعصمه من الترديد والابتذال •• لكنها — رغم ذاك — كانت ملء أعين العشيرة ، ملء الأسماع والقلوب ••

وظلت هكذا ، حتى بعد أن اقترفت جريمة قتل ، وغيبتها ظلمات السجون •••

حملت بها أمها على يأس ، بعد انتظار طويل مرير ، امتد سنين ذوات عدد ، واستنفد كل حيلة ورجاء • وراحت العشيرة كلها تعد الأيام والليالى فى انتظار مولد الطفل الأول لزين العشيرة وسيد شبابها ، حتى اذا لم يبق على الموعد المرتقب سوى شهر واحد ، روع الحى بنبأ فاجع : لقد قتل الشاب غيلة وغدرا ، بعد أن روى الأرض بدماء ثلاثة من خصوم القبيلة ، فى ثأر لها قديم •

وهكذا ولدت « عزة » يتيمة ، فضجت القبيلة ساعة مولدها بالعويل والنواح !

لقد عز على كل فرد فيها أن تجىء « عزة » بعد أن مضى أبوها الى غير مآب !

لكن الوليدة استطاعت أن تبدد بوجهها الناعم المضىء ، وابتسامتها الحلوة المشرقة ، بعض الظلال الربداء التى غشيت أفق القوم !

وما لبثوا أن رأوا فيها صورة من فقيدهم الراحل وذكرى حية باقية للذى مضى وراح ••

وود كل منهم أن يكون لليتيمة أبا !

وشبت « عزة » فى رعاية قومها ، فضنوا بصباها المتفتح على أعين الناس ، وأدخلوها الخباء عزيزة مكرمة ، لا يمسها غبار ولا تجرحها نظرة ••

ولم تضق هى بعزة الخباء ، فلقد كان يؤنسها فيه خيال من ابن عمتها النازح النائى ، ذاك الذى خطبت له منذ كانت فى المهد صبية ، ورأتهما مغانى الحى أليفين لاهيين ، ينطلقان بين المراعى والمروج خاليى البال ، وأصغت قطعان الماشية وأسراب الطير الى المقاطع الأولى من نجواهما الساذجة ، وشهدت سماء الصعيد الدافئة فجر حبهما الوليد ••

ثم كان فراق ...

ضرب عليها الخباء ، ومضى هو الى مدينة « أسيوط » فى صحبة أبيه ..

وكان الأب قد نال حظا من العلم جعله يضيق بحياة النجع ، وخايلته أضواء المدينة من بعيد ، فراح يتردد عليها مأخوذا مسحورا ، حتى وجد عملا ثابتا فى احدى الشركات هناك ، فاستقر به المقام فى مسكن صغير عند أطراف المدينة .

وأنكر القوم على مثله أن يشتغل عاملا فى الحضر ، اذ كانت تقاليدهم تنأى بهم عن الاحتراف ، وترى فى حياة المدن ترفا ونعومة ، تأباهما البداوة الأصيلة . لكن « الشيخ عرابى » لم يأبه لانكارهم ، اذ كان اغراء المدينة أقوى من أن يقاوم .

وأبت زوجته فى أول الأمر أن تتبعه ..

نفرت طبيعتها البدوية من زحمة المدن وضجيجها وأضوائها ، وتشبث قلبها بالنجع ، والدار ، والمرعى والقطيع ، فما كان من « الشيخ عرابى » الا أن انتزع والديه ، وتركها تكابد من الوحشة والشوق ما لم تحتمل ، فلحقت به بعد أيام ، مستسلمة صاغرة .

وهناك فى المحبس الضيق المظلم ، قضت الزوجة خمسة أعوام ، يذيبها الحنين الى الهواء الطلق والفضاء الرحب والشمس المشرقة والبدر الوضاء والنجوم المتألقة والليل الساجى ، وتصغى فى ساعات الوحدة الطوال الى نداء بعيد ، يغريها بأن تفر من محبسها وتئوب راجعة الى دنياها ، فتهم بأن تفعل ، أو هكذا كان يخيل لها ، ثم لا تلبث أن تتخاذل عندما ترى بكرها « عبد المنعم » عائدا من مدرسته الثانوية فى « بذلته » الأنيقة ، وتحت ابطه كتب العلم والمعرفة ، وصغيرها « محمود » راجعا من المدرسة الابتدائية القريبة من المسكن !

هنالك يبتر صدى النداء البعيد ، ويهون عليها كل ما تحتمل ..

وفى الليل ، كان زوجها يعود من الشركة ، فيحدثها حديثا عجيبا عن مستقبل « عبد المنعم » عندما يتم دراسته العالية فى مصر أم الدنيا ، ويعود مديرا للمديرية كلها ..

ولم تكن تفقه حرفا واحدا مما يقول ، فهى لا تعرف ما الدراسة العليا ، وما المدير ، والمديرية .. لكنها مع ذلك كانت تعطى زوجها أذنيها محاولة أن تسمع كل ما يقول ، حين يصر خيالها على أن يتمثل « عبد المنعم » عريسا يزف الى « عزة » الحلوة ، بنت أخيها الراحل ..

ذلك أنها لم تنس « عزة » قط !

وكذلك لم ينسها « عبد المنعم » .

وأما « عزة » فكانت تعيش فى النجع النائى داخل خبائها ، ترعى ذكريات هواها العذرى ، وتحرس طيف أليفها البعيد ، وتصون جمالها عن أعين الطامعين !

كانت أجمل بنات الحى ، وقد ألقى اليتم على وجهها المليح ظلا خفيفا من الدعة ، زاده ملاحة . ثم مسه الحب الطاهر بلمسة من الشجو والرقة ، جعلتها فتنة حالمة !

★★★

وفجأة مات « الشيخ عرابى » .

ولم تعش زوجته بعده طويلا ..

كانت حياتها فى المدينة قد أنهكتها ، فذوى عودها وجف ، فلما مات زوجها لم تحتمل وطأة الحزن سوى عام وبعض عام .

وتركت من ورائها فتاها « عبد المنعم » يوشك أن يتم المرحلة الثانوية .

و « محمود » يبدأ عامه الأول من تلك المرحلة .

و « عزة » فى النجع البعيد ، تبكى عمتها الراحلة وتتساءل فى ريب عما يضمره لها الغد

ولو رفع لها الحجاب عن الغيب المضمر . لملئت منه رعبا ..

★★★

قال لها « عبد المنعم » وهو يودعها بعد ما أرقد أمه فى ثرى النجع :

ـ هل تستطيعين يا عزة ، أن تنتظرى ثلاثة أعوام أخرى ريثما يكمل « محمود » دراسته الثانوية ؟

قالت على الفور :

ـ غب ما شئت يا منعم ، فستجدنى ان شاء الله صابرة ، مقيمة على العهد أبدا ! وغاب « عبد المنعم » ثلاثة أعوام ، لم يزر خلالها القرية الا لماما . ولكن أنباءه ترامت الى عزة من بعيد ، فعلمت أنه آثر أخاه على نفسه ، فترك المدرسة والعلم ، واشتغل كاتبا صغيرا فى الشركة التى كان أبوه يعمل بها ، كى يوفر لأخيه « محمود » نفقات الدرس والعيش معا .

وقيل لعزة فيما قيل ، ان العبء مرهق ، فهو يكدح ويشقى وينفق من صحته وشبابه ، بعد أن أنفق كل مستقبله !

وطالما تمثلته متعبا مكدودا فذابت شفقة عليه !

★★★

حتى عاد فى الموعد المحدد ، ليطلب اليها مزيدا من الصبر والاحتمال :

ثلاثة أعوام أخرى من أجل « محمود » كى يتم دراسته فى معهد التربية بمصر ٠

وودعها « عبد المنعم » الى لقاء بعيد ٠٠

ثم مضى ، وظلت « عزة » تتبعه ببصرها من كوة فى خبائها ، حتى اذا غيبته ثنية الطريق ، أمسكت قلبها فى ذعر ، وقد أحست فجأة أنه يتصدع !

ذلك أنها تنبهت بغتة ــ فى اللحظة التى غاب شخصه فيها ــ الى نحوله وضعفه ٠

وكانت شجون اللقاء والوداع ، قد صرفتها عن تأمل كيانه الهزيل المتداعى ٠

ودت لو تلحق به ، ولكن كيف ؟ دون ذلك أهوال ٠٠٠

كيف مضت من بعد ذلك السنون ؟

الله وحده يدرى ٠٠٠

★★★

وتلاقيا أخيرا ٠٠٠

هيكلين نحيلين ، قد أرهق أحدهما الكدح المضنى ، وأذبل الأخرى شجو وشجن !

تلاقيا ، وسرعان ما غفرا للزمن ستة أعوام من الضنى والكلال ، والعذاب !

وعادت الحياة تدب فى أوصالهما ، وقد جمع الله شملهما بعد أن أتم « محمود » دراسته ، وعاد ليقيم فى المسكن بعد أن صار « أستاذا » ملء ثيابه ، مزهوا بشبابه ، وشهادته ومركزه بين مدرسى المدرسة الابتدائية الأميرية !

ولم يفكر « محمود » قط فى الثمن الفادح الذى دفعه الأخ وابنة الخال ٠

بل مضى سادرا ، يطلب تضحيات جديدة ، وكأنه يمن على أخيه الكاتب الصغير المغمور أن صار أخا « لأستاذ فى المدرسة الأميرية » .

وكذلك كان يمن على « عزة » أن منحها شرف خدمته !

★★★

وسارت الحياة بهؤلاء الثلاثة وئيدا بضعة أشهر فحسب، ثم لاحت نذر العاصفة !

وأما « عبد المنعم » فكان فى غفلة عنها ، يكفيه من دنياه أن يئوب من عمله المتواضع الى بيت يظل « عزة » الحبيبة و « محمود » الذى اشتراه من هذه الدنيا بالكدح ، والسهر والعرق والحرمان !

وشغلته فرحته بلقاء « عزة » ونجاح « محمود » عن الانتباه للتطور الهائل الذى أصاب أخاه :

لقد ردته « القاهرة » مخلوقا آخر : مغرورا ، أنانيا ، شرها ، شريرا ، فاجرا ..

وزودته بمثل عليا غريبة ، باعدت بينه وبين أخيه « البدوى » الجاهل الأحمق ، الذى يتعلق بأوهام موروثة ، من الشهامة والخير والايثار .

لكن « عزة » لم تكن — على سذاجتها — بحاجة الى ثقافة أو علم ، أو نضج ، لتفطن الى كل هذا ، فقد رأت الشيطان يطل من عينى «محمود» وأدركت بغريزتها ما وراء الأكمة .

ومن ثم بدأت تشعر أن ابن العمة ، قد صار مخلوقا أجنبيا غريبا لا يحل لها أن تلقاه !

وبلغ بها الأمر مداه ، فكانت تحس أن نظراته اليها تجردها من كل حرمة وطهر ، وتردها عارية مبتذلة ، كنساء السوق ! لكنها أصرت مع هذا أن تحتمل المحنة من أجل « منعم » !

فما كان يهون عليها قط ، أن تفجعه في جهد العمر وكدح السنين ، وأن تكشف عن عينيه الغطاء ، ليرى عبث خاسر ضاعت فيه حياته كلها ·

واعتصمت بالتجاهل حينا ، وبالسذاجة والتغابى حينا ، من أجل « منعم » !

وشهدتها الليالى مسهدة تتقلب على شوك القلق والخوف ، و « منعم » الى جانبها نائم ملء الجفون !

ولربما استغرقت الليل كله فى الاستغفار والتوبة من نظرة مريبة صبرت عليها ، أو لمسة جارحة لم تقطع اليد الآثمة التى دنستها ·

حتى صار الاحتمال لونا من البطولة :

فقد كانت مصرة على أن تحمى نفسها من الشيطان ، وأن تحمى رجلها ــ فى الوقت نفسه ــ من اليأس والدمار ·

وكلما أوشكت أن تفقد أعصابها ، طالبت نفسها بمزيد من الاحتمال ·

ولم يدر بخلد الشيطان أنه يزرع فى قلبها الحقد ، والمقت والاحتقار ، بقدر ما كانت تحتمل أذاه !

وكانت بحيث تحتمل طويلا ، لولا أن الشيطان لم يسمح لها بذاك ، فعجل بالكارثة ··

☆☆☆

دخل عليها ذات ضحى ، وهى فى مباذلها تغسل ثياب الأسرة ، وجلس تجاهها يحدق فيما حسر الثوب الممزق عن جسدها وهى ماضية فى عملها ، متجاهلة نظراته الآثمة ·

وطلب اليها أن تعد له الحمام ، فاستمهلته ريثما تتم الغسل ··· وبدأ يحدثها ــ فى تورية مكشوفة ــ عن رغبته فيها ، فتغابت ، كأنها لا تصدق أن مثله يجسر زوجة الأخ وبنت الخال !

عندئذ قام الفاجر الى الباب فأغلقه ، ثم عاد اليها شاهرا مسدسه ، وطلب اليها أمرا ٠

فلم تفقد أعصابها بل كظمت غيظها وحقدها واشمئزازها ومضت تحدثه عن ليال مسهدة ، وعذاب طال مداه ، واحتمال استنفد كل حيلة وغلب كل اصطبار ٠

ولمعت عيناها ببريق أخاذ ، وهى تحدق فيه قائلة :

ـ اذن فقد آنت ساعة الخلاص ؟!

ونفضت يديها من (طشت الغسيل) ونهضت فى عزم، فطلبت اليه أن ينتظر برهة ريثما تعد له الحمام ، وليكن بعد ذلك ما يشاء ٠٠

وغابت فترة ، ثم عادت فأشارت اليه أن يتبعها ٠٠

وأعماه الاثم ، فسار وراءها مسحورا ، ثم لبى أمرها مغتبطا حين طلبت اليه أن يتخفف من ثيابه وحملت من النار وعاء زعمت أن فيه ماء ساخنا ، ثم جمعت شجاعتها وحقدها وعذابها ، وألقت على رأس «محمود» وبدنه ، ما فى الوعاء ٠

وكان ما فيه بضعة أرطال من المسلى البلدى ، فى درجة الغليان ٠

وسقط الخائن تحت قدميها جثة هامدة ٠

فألقت عليه نظرة ملؤها الصرامة ، ثم اندفعت الى الخارج فألقت الى « البوليس » اعترافها الرهيب ٠

وانتظرت ساعة ، واجمة جامدة الملامح ، حتى جىء بزوجها الى المحقق بادى الانهيار ٠٠

هنالك فقط ، زايلتها صرامتها وجمودها ، فلانت أساريرها ورقت نظرتها ، وهى تستقر على الزوج الحبيب المنكود ، الذى خسر فى لحظة واحدة ، زوجته وأخاه !

كيف جرؤت على أن تفجع أعز الناس عليها ، فى أحب الناس اليه ؟

كيف ، وكيف ؟

★★★

وسيقت الى السجن مكبلة بالأغلال .

وتبعتها جموع من العشيرة ، تبارك اليد الطاهرة التى قتلت الشيطان ..

وكذلك تبعها زوجها الحبيب ، صامتا مطرقا ، لا يجد ما يقوله لبنت الخال التى أحبها ملء قلبه ، فدفعت حياتها وحياته فدية لشرفه ، وانتقاما من آثم سولت له نفسه الأمارة بالسوء ، أن يخون الرجل الذى جاع ليطعمه ، وتعرى ليكسوه ، وهدم مستقبله لكى يبنى له من الأنقاض مستقبلا .

ولكن أى ثمن فادح دفعت يا عزة ؟

سؤال جال بخاطر المسكين ، ثم لم يجرؤ لسانه على أن ينطق به أبدا .

وفى غيابة السجن أدخلت « عزة » وأوصدت الأبواب بينها وبين زوجها والذين تبعوها من آلها وعشيرتها ..

وتلاشى صدى الهتاف الذى شيعوها به ، فانثنت تحدق فى كيانها المهدود ويديها المغلولتين متسائلة :

أكان الذى حدث حقيقة واقعة ، أم كان من أضغاث أحلام ؟

هو حلم عابر ، مر بغتة وعلى عجل ، ولكن ما هذا السجن الضيق المظلم الذى تقيم فيه ؟

أين بيتها وأين منعم وأين محمود ؟

وهزت رأسها تريد أن تكذب يقظتها ..

وعصمها ذهولها ، وسذاجتها ، من التصدع والجنون .

وبقيت هكذا عاما بأكمله ، تساق المرة بعد المرة فى عربة السجن الى محكمة جنايات أسيوط ، لترى مشهدا عجيبا لم تشهد مثله من قبل :

رجل غريب ، يؤكد أنها مجرمة قاتلة ، ويسألها فى شدة وغضب : أما كان فى امكانها أن تستغيث بالجيران ؟

وآخر لا تعرفه ، يتحدث عن حقها فى الدفاع الشرعى من عرضها ، ويصيح مطالبا لها بالبراءة ، ووسام البطولة والشرف !

ورجال ثلاثة كهول ، فى زى غريب ، يجلسون على (مصطبة) عالية ، مصغين الى هذا ثم الى ذاك فى حرص واهتمام ، كأن الأمر يعنيهم ، أو كأنهم بعض عشيرة الضحية التعسة ، والقاتلة المسكينة !

وسألها كبيرهم :

ـ هل فعلت يا عزة ما اتهموك به ؟

أجابت فى غير تردد :

ـ أى والله فعلت يا سيدى ، وكنت أنا التى أسلمت نفسى للبوليس .

فعاد يسألها :

ـ ولكن كيف طاوعتك يداك على قتل ابن عمتك ؟

فألقت على زوجها نظرة حائرة لهفى ، ثم آبت الى السائل تجيب :

ـ والله ياسيدى لا أدرى كيف ! كان يكفى أن أعرف حب زوجى لأخيه ، كى أغفر له كل شى، وأحتمل كل أذى ، وقد حاولت ، لكن لا أعلم لماذا خاننى تصبرى واحتمالى ؟

وتابع سؤاله : هل نفدت حيلك فلم تجدى سوى القتل؟

ردت فى حيرة : هذا هو السؤال الذى يشغلنى منذ قتلت ابن العمة وحتى الساعة لم أهتد الى جواب !

وانزوت فى مقعدها ، ترنو فى عطف ورحمة ، الى « عبد المنعم » ·

فى الأسبوع الأخير من شهر فبراير عام ١٩٥٢ ، سيقت عزة الى قاعة محكمة الجنايات ، لتسمع الحكم عليها « بالسجن سنة واحدة ، لأنها جاوزت حدود الدفاع الشرعى »

ودوت القاعة بهتاف عال لعدالة المحكمة وبراءة البطلة القاتلة ·

لكن « عزة » لم تشغل كثيرا بهذا الذى سمعت ، بل تعلقت عيناها بعبد المنعم ، كأنما تسأله : « وبماذا يحكم هو عليها ؟ »

لقد سمعته بأذنيها يدافع عنها فى حرارة ، ويستبشع الذى تعرضت له من أذى ونكر ، ويستفظع ما أريد بها من سوء · ولكن · هل غفر لها حقا ؟

أجابتها عيناه :

أجل يا عزة ، ياكل من بقى لى من دنياى ··

لكن لسانه لم ينطق بالعفو ، حتى آن أوان عودتها الى السجن « لاجراء اللازم نحو اطلاق سراحها بعد مضى مدة العقوبة فى الحبس » ·

وهناك فى أعماق الصعيد ، فى أقصى الطرف الغربى من مدينة أسيوط ، تمضى الحياة غير مكترثة بمخلوقين متعبين حائرين ، زوج وزوجة ، يحملان متاعهما القليل ، ويمضيان الى النجع ، بعد أن لم يعد لهما على أرض أسيوط مكان !

تمضى الحياة غير مكترثة بهما ، بعد أن أدت البدوية الحرة دورها الرهيب فى المأساة ، وانقطع هتاف الشهود وأسدل الستار ···

• غاليــة

« وقال الذين رأوه ساعة صدر الحكم عليه بالاعدام ، انه أصغى الى الحكم الرهيب بجأش رابط ، ثم التفت الى بنت عمه وقال فى صوت أجش :

ــ فى نفسى « يا غالية » أن أعرف ماذا ستفعل بك الأيام !

« ومضى الى الموت وأسدل الستار على شيخين ثاكلين ، وفتاة حزينة ملتاعة ، تبكى القاتل والمقتول »

ولى النهار بطيئا مجهدا كأنما كانت تمسكه سلاسل غلاظ لا يملك منها فكاكا ، وترنحت الشمس الغاربة على الأفق البعيد ، تحدج الأرض بعين حمراء بعد أن أقامت اليوم كله تظلل الكون بظلة من لهب وتقذفه بشواظ من نار ٠ وبدأ الفلاحون يتركون حقولهم ويعودون الى دورهم بخطوات واهنة قد أجهدهم اليوم الصائم ، وأنهك قواهم العمل المرهق تحت سياط اللهيب ٠

وخيم على القرية كلها سكون هامد وهى تمسك أنفاسها اللاهثة ، كيما تسمع أذان المغرب ، يدعو الصائمين الى الافطار ٠

وخلت دروب القرية ومسالكها من السابلة ، وتركت الحقول للوحشة والظلام ، ورزح الكون تحت سحابة من دخان خانق من لفح الهجير ، حجب من ورائه السماء المخضبة بفلول من الشعاع الأحمر ..

وفجأة ، مزق السكون صوت (عيار نارى) مكتوم ، أعقبه عواء كلب شريد فى الغيطان ، ثم عاد السكون أشد وحشة ، ورهبة ، وعمقا ، وقد جمدت أيدى المفطرين على أقداح الشاى ، ووقفت النسوة فى أفنية الدور زائغات البصر ، على حين أرهف الرجال آذانهم يتسمعون لهاث الفزع الجاثم وأنفاس الغروب الواجم ، حتى اذا زايلتهم غشية المباغتة ، خرجوا الى مشارف القرية من الجهة التى انبعث منها الصوت ، ونسوتهم من ورائهم خائفات يترقبن ..

كانوا جميعا يعلمون أن هذا الصوت المكتوم ، لا يحدث الا من رصاصة صائبة ، وقد وقفوا يحدقون فى الطريق الزراعى الممتد شمالى البلدة ، موقنين أن وراء عتمة المساء جثة قتيل لم تبق فيه خفقة من حياة ، والا لسمعوا فى ذلك السكون المطبق حشرجة الاحتضار !

ومضت فترة طويلة ثقيلة ، قبل أن يفد أحد الخفراء من دوار العمدة النائى المنعزل ، ثم لم تك الا خطوات حتى راح ينفخ فى صفارته بأنفاس متقطعة ، وهو يصيح بين آن وآن :

ـ قتيل يا ناس !

فهرع اليه من هرع من أهل القرية ، ليروا على الشعاع النحيل المنبعث من مصباحه الخابى ، جثة القتيل الغريب ..

وقضت القرية ليلتها تلك ساهرة ، تتحدث عن الجثة المنبوذة بالعراء ، فى حراسة بعض الخفراء .

ثم كان نهار ضاج لاغب ، استنفد كله فى التحقيق والتشريح ، قبل أن يؤذن لأهل القتيل فى حمل جثتهم الى بلدهم .

وانتقل مسرح الحوادث بعيدا ، وهيل التراب على ما بقى من دم القتيل فى موضع الجريمة ، وان بقيت المأساة حديث أهل القرية وشغلها الشاغل أياما وليالى ..

كانت الجثة لشاب غريب عن القرية عرفوا فيه ، على التو ، الابن الوحيد لرجل حديث الثراء مغمور النشأة ، من أهل قرية غير بعيدة .

وقد نبت الفتى فى كنف أسرة كبيرة ، اشتغل آباؤه خدما لها تابعين ، وكان فى صباه يعمل خادم اصطبل ينظف مرقد الفرس ، ويحمل العلف للدواب .

غير أن أباه خرج على سادته لأمر كثرت فيه الظنون وتعددت الأقاويل وانتشرت الشائعات ، وأقام فى كوخ صغير عند أطراف البلدة ، مع زوجه وولده ، يلتمس وسيلة للرزق بالخدمة فى الزراعات المجاورة ، حتى استقر به الأمر أخيرا عند سمسار ايطالى قد اتخذ من (أشمون) مركزا لمضارباته وعملياته فى تجارة القطن .

وكان الأب فى أول أمره ، يشتغل وسيطا للسمسار . بما له من معرفة بأهل المنطقة وادراك لأحوالهم وعاداتهم . ثم غدا بعد قليل موضع ثقة الأجنبى ، فأبقاه الى جانبه أمينا على خزائنه ، وحل الابن محل الأب فى الطواف بالقرى طيلة موسم القطن ...

★★★

حتى لاحت نذر الحرب ، وبدأت مصر تضيق الخناق على من يقيمون فيها من الطليان والألمان ، وترسل عيونها وراءهم يتعقبون خطواتهم ، ويرصدون حركاتهم ، ويسجلون نظراتهم ويحصون أنفاسهم . وكان السمسار الايطالى من بين الذين ضاقوا بتلك العيشة القلقة الخائفة ، فغادر القطر المصرى على عجل يطلب فى دياره مأمنا ريثما تنجلى الغاشية وقيل انه أودع أمواله كلها فى حراسة تابعه المصرى الأمين ، اذ كان من العبث أن يودعها عند أحد

أصدقائه الطليان ، لأنهم ـ مثله ـ مهددون بالاعتقال فى كل آن ...

وانجلت الحال عن حرب طاحنة ضروس ، أكلت (السمسار) فيمن أكلت من بنى وطنه ، فألفى (فلاحنا) نفسه بين يوم وليلة ، من ذوى الثراء العريض ، وشهدته قريته يعود اليها ذات صباح ، فيقف على أطلال ذله القديم ، ليرى ما فعلت الأيام ـ أيام الحرب ـ بدنياه الأولى !

شد ما غيرت فيها وبدلت منها ! لقد قلبت عاليها سافلها. فاذا سادة الأمس قد تركوا البيت الكبير وأقاموا فى دار متواضعة لا تزيد كثيرا عن دور الأجراء والأتباع ، وانكمشت أرضهم فلم يبق منها سوى بضعة أفدنة تغل قليل الطعام ورخيص الكساء ، ومسخ الحصان ـ الذى طالما أتعب خادمه الفتى ـ فصار الى حمار هزيل يمشى فى دروب القرية مشية الذليل !

★★★

ووقف أهل القرية جميعا ينتظرون ماذا يكون من أمر (المحدث النعمة) مع سادته بالأمس . لقداشترى ضيعتهم فى (مزاد) البنك العقارى بعد أن غالى فى ثمنها وذاد عنها كل الذين طمعوا فى شرائها ، فهل تراه يرهق الأعزة الذين ذلوا ، ويسرف فى الاشتفاء منهم ، انتقاما لعمر طويل من المذلة والهوان ؟!

ولم يطل بهم الانتظار ..

فقد أعلن السيد الجديد ـ منذ اللحظة الأولى ـ أنه وما ملكت يداه ، فى خدمة القوم الكرام الذى ربوه هو وولده صغيرين . وأصر على أن يرجعوا فيقيموا فى البيت الكبير ، وحسبه هو أن يقيم فى دار الضيافة الملحقة (بالسراى) .

ثم زاد فتخلى عن حديقة الضيعة ـ أجمل حدائق المنطقة ـ هدية منه (للست الصغيرة) التى لم تترفع ـ أيام

عن قومها ــ عن اتخاذ ولده (خادم الاصطبل) رفيق صبا وزميل ملعب . وأنه ليذكر لها ــ فى ولاء الوفى وحمد الشاكر ــ ما أسبغت عليه من عطف ، وما أتحفته به من شهى الحلوى ولذيذ الفواكه التى كانت تحمل لها من المدينة .

وفاضت نعم الرجل على القرية ، كما فاضت على هؤلاء ، حتى لم يبق من أهلها من لم يصله بر هذا المحسن الكريم .

وكذلك لم يبد على الفتى الشاب أن النعمة أبطرته أو أن الغنى أفسده ، فقد بقى يتردد على البيت الكبير متسائلا فى الحاح عن خدمة يؤديها ، ولم تكن تمضى مناسبة ــ كموسم أو عيد ــ دون أن يحمل الى (الست الصغيرة) هداياه ، ملتمسا فى ضراعة أن تسعده بقبولها ..

★★★

ماذا كان شعور السادة نحو من ورث عزهم وصار لهم شبه سيد ؟

بم كانوا يحسون وهم يعيشون على صدقاته وعطاياه ؟

وكيف كان حديثهم ــ فيما بينهم ــ عن بره بهم وعطفه عليهم ؟

لم يكن أحد يدرى ، فلقد أقامت الأسرة بينها وبين أهل القرية حاجزا من العزلة والانطواء ، ترفعا أو تألما ، وان ظلت « غالية » على مودتها لرفيق حداثتها ، لا ترى فى الوضع الجديد ما يثير موجدتها أو يصدها عن قوم كانت جريمتهم بالأمس أنهم فقراء ، فأصبحوا وجريمتهم اليوم أنهم أغنياء !

وشاع فى القرية أن الفتى « صالح » يهفو الى « غالية » ويجن بها غراما ، وأنها لن ترفض له يدا ، لو يطلبها له زوجة !

وزاد ناس فأكدوا أنها تضمر له من المحبة مثل الذى يضمر وانما تلوذ بالصبر والكتمان ، ريثما يفيق قومها من هول الصدمة ، ويصفو الجو بعد العاصفة التى هبت على دنياهم ، فقلبت عاليها سافلها !

ولكن يدا مجهولة ، أطلقت النار على الفتى ذات مساء ، فأصابت منه مقتلا ، وألقت جثته على جسر مصرف « منوف » غارقة فى الدماء !

وكشف التحقيق عن المأساة :

سعى الفتى فى يومه المشئوم الى البيت الكبير ، يسأل كعادته : هل من خدمة ؟ فما كان منهم الا أن بعثوا به الى قريب لهم – فى قرية مجاورة – ليحمل اليه مبلغا من المال كان ينتظره ، كيما يغدوا به فى الصباح الى « شبين الكوم » أداء لدين حل أجله ...

وقيل له فيما قيل ، اعتذارا عن تحميله تلك المشقة : أن ليس هناك من يؤتمن على المال ، سوى الشاب الكريم الأمين ، فرب الأسرة شيخ عاجز أحنته الأحداث والسنون ، وشبانها ، أحدهم مريض لا يقوى على الحركة ، واثنان طائشان مسرفان ، لن يترددا فى الفرار بالمال الى المدينة ، ليدفعاه ثمنا لساعات لهو خاسر .

وقبل الشاب المهمة راضيا ، وانطلق يسعى الى وجهته ساعة الأصيل ، وهو لا يدرى أن أجله هو الذى حل !

أبى عليه (القريب) أن يمضى عائدا قبيل الغروب ، دون أن (يكسر صيامه) وأمسك به حتى حان أوان الافطار ، فازدرد الشاب بعض الطعام على عجل ، وانصرف يريد قريته .

فلم يبلغها الا فى أصيل اليوم التالى جثة ممزقة مشرحة !

★★★

ولم يجد النائب المحقق مشقة فى جمع خيوط المؤامرة التى دبرت لاغتيال الفتى المسكين .

ذلك لأنه ما كاد يلقى القبض على رب الأسرة الشيخ ، بتهمة التحريض على القتل ، حتى تقدم ابن أخيه ، فأدلى باعترافه مباهيا !

قال انه هو الذى فكر ودبر ، وتربص واغتال . ووصف كيف تمارض حين دعاه عمه ليكلفه بالمهمة التى كلف بها وكيف تسلل من فراش مرضه ـ على غير علم من أسرته ـ وكمن فى طريق الفتى ، حتى اذا رآه عائدا سدد اليه عياره فأصابه ، وعاد من حيث أتى ، دون أن يراه انسان . اذ كانت الساعة التى تفتر فيها الحركة ، عقب تناول الافطار .

وبرر فعلته بأنه انما أراد أن يمحو عن ابنة عمه عار الأبد وذل الدهر ، وأن يغسل الاهانة التى ألحقها ذلك الوضيع بشرف الأسرة ، حين سولت له نفسه أن يطمع فى مصاهرة سادته الذين عرفوه بالأمس القريب تابعا ذليلا ، يرقد فى مربط الدواب، ويقوم على خدمة الخيل، لا السادة !

وسيق الجانى الى المحاكمة ، ليدفع دمه بديلا من الدم البرىء الذى أهدر .

وقال الذين رأوه ساعة صدر الحكم عليه بالاعدام ، انه أصغى الى الحكم الرهيب بجأش رابط ، ثم التفت الى ابنة عمه وقال فى صوت أجش :

ـ فى نفسى يا « غالية » أن أعرف ماذا ستفعل بك الأيام ، بعد أن أمضى ..

ومضى ، يدفعه الحراس مكبلا بالأغلال ، الى عربة الموت .

وأسدل الستار ـ الى حين ـ على والدين شيخين ثاكلين ، وفتاة حزينة ملتاعة ، تبكى القاتل والمقتول ..

★★★

وركض الزمان مسرعا يطوى ما كان ، وكاد الناس يشغلون عن المأساة ، لكنهم فوجئوا ذات صباح بمشهد رهيب : مشهد الأب التعس يحمل رفات ابنه القتيل من قبره ، ويمضى به الى حفرة احتفرها فى حديقة السراى ، ثم أقام عليها قبرا جديدا وجلس يبكيه .

ومن ذلك الحين ، والقرية تتحدث على شبح يتسلل كل ليلة من بين القبور ويطـوف بالضيعة ، ثم يقيم عـلى قبر القتيل حتى يبزغ نور الفجر •

قال قوم : انه شبح القتيل نفسه ، يرتاد الربوع الذى شهدت حبه ، ورأت مصرعه ••

وقال آخرون : لا ، بل هى « غالية » تغافل الحراس من قومها ، وتتسلل خفية من دار أبيهـا عند أطراف القـرية ، لتزور قبر الحبيب الشهيد !

• الراقصــة

« ولبثت الصحف أياما وأسابيع ، تتحدث عما زعمت أنها عرفته عن تاريخ الراقصــة ، وزيجاتهــا ومغامراتهــا ، وتسخر بما قالت الاعلانات الأولى عن انتمائها الى « أسرة كريمة بالصعيد » فأرثى للضحية التعسة ، سليلة بيت العلم والدين ! » •

ظهرت فى ملاهى الليل بالعاصمة فجأة •• لم يكد أحد يعلم من أين جاءت ، ولا الى أى قوم تنتمى • كل ما ذكرته عنها اعلانات الدعاية يوم ظهرت لأول مرة ، أنها تنحدر من « أسرة كريمة بالصعيد » ولعل أحدا من الرواد لم يلق بالا الى هذا الذى قيل ، فما يعنيــه من « الراقصــة » الا جمالها وشبابها وفنها • وأما « الأسرة الكريمة » فهبــة مشــتركة مشاعة بين الراقصات ، تهبها الدعاية لكل منهن دون تفرقة أو تمييز •

وما كان لى أن أعرف شيئا عن مثلها •• فلقد تباعد ما بيننا الى الحد الذى لا يرجى معــه تعــارف أو لقاء • كانت تمضى ليلها وسط الأضــواء الســاطعة المتألقة ، تقتات من اعجاب رواد الملاهي والمشارب ، عــلي حين كنت أمضى أكثر

ليلى ساهرة بين الكتب والمراجع ، أقتات من « العلم » على ضوء مصباح ضئيل ، ذى ساق من المعدن الأخضر ..

ولعل حياتنا كلها كانت بحيث تمضى دون أن تشعر احدانا بوجود الأخرى أو تسمع عنها خبرا .. فما دخلت ملهى قط ، وما أحسبها هى الأخرى قد دخلت احدى دور العلم التى كنت أنفق حياتى بين جدرانها .

غير أنها فى الواقع كانت أقرب الى مما ظننت ..

عدت من الجامعة ذات يوم من شهر مايو عقب ساعات مرهقة فى « خيمة الامتحان » تحت سياط من لهب الظهيرة ، فلقيتنى بباب « كلية البنات » التى كنت أعمل بها فى ذاك العهد ، زائرة شابة أنيقة .. قدمت نفسها الى بوصفها جارة قريبة لنا ، ثم رجتنى أن آذن لها بالحديث معى دقائق معدودات ..

وأحسب أنها لو سألتنى أى شىء آخر ، لما شعرت بمثل ذاك الضيق وتلك الحيرة التى شعرت بها حينذاك ... فلقد كان وقتى الذى طلبت الزائرة دقائق منه ، أثمن ما أملك ، بل لعله كان فى تقديرى أثمن ما فى الدنيا جميعا . على أن استحيائى غلب حيرتى .. فمضيت بالزائرة الى مكتبى ورجوتها أن تفضى الى بما تريد !

قالت فى تعثر :

ـ وددت لو ساعدتنى على الحاق ابنتى الصغيرة ، بالقسم الداخلى فى الكلية .. فلقد نصح لى كل من تحدث اليهم اليوم فى أمر ابنتى ، أن أستعين بمكانتك عند ناظرة الكلية ، لعلها تذلل لى السبيل ..

فعجبت لما سمعت .. ذلك لأن مسألة الالتحاق بالقسم الداخلى لم تكن مشكلة فيما أعلم ، وانما هى مباحة لكل من تستطيع دفع المصروفات العالية المقررة ، مادام هناك مكان خال فى القسم . وقد كان لدينا فعلا بضعة أمكنة خلت

وشيكا بنجاح عدد من طالبات الدبلوم ، وهـذه الزائرة هى صاحبة الحق فى المكان الأول منها ، بحـكم سـبقها فى طلب الحاق كريمتها .

قلت لها وقد سرني أن المقابلة توشك ان تنتهى :

ـ نحن فى خدمتك يا سيدتى .. وليس فى الأمر الا ان المجانية محرمة فى الكلية .

فأجابت على الفور :

ـ ليست المسألة المالية هى التى تعنينى الآن .. فللكلية ما شاءت من رسوم ، لكن ..

وترددت لحظة لا تكمل عبارتها .. وبدت عليها مظاهر الحيرة والاضطراب .

ولم أجد ما أقوله لها ، فلبثت صامتة انتظر ..

واستجمعت شجاعتها ، فقالت على عجل كأنما تخشى ان تخونها هذه الشجاعة :

ـ سمعت أن ادارة الكلية تحرص كل الحرص عـلى أن تكون طالباتها من بنات الأسر الكريمة ، فهل يضير صغيرتى أن أمها راقصة محترفة ؟

وأذهلتنى المفاجأة ، والجمت لسانى لا يحير جوابا .. على حين اندفعت هى فى حديثها لا تتوقف :

ـ أرجو ألا يكون ذلك مدعاة لاحتقارك اياى !

ـ معاذ الله يا سيدتى .. ولم ؟ اننا لا نختار طريقنـا فى الحياة ، وانما الظروف هى التى توجهنـا حسب مشيئة القدر ، فلا فضـل لى آنى طالبـة علم ، ولا ملام عليك أنك راقصة ، ولعلى لو كنت مكانك ..

فلم تدعنى اكمل عبارتى بل قاطعتنى قائلة :

ـ انك طيبة القلب .. فدعينى أؤكد لك أنى ما انحرفت

الى طريقى هذا الا مضطرة ، وتستطيعين أن تقــولى لادارة الكليــة انى أنتمى الى أسرة كريمة حقــا ، دون أن تخشى الكذب فيما تقولين ..

بل لماذا لا أعترف لك بأنى من بيت علم ودين ؟ كان أبى غفر الله له من شيوخ العلم .. وقد حج بيت الله الحــرام خمس مرات ، وأما جدى فكان وليا من أولياء الله الصالحين. ومايزال ضريحه فى بلدتنا مزار للقاصدين ..

أراك فى دهشة وعجب مما أقول ، فدعى عنك موضوع ابنتى ، واسمعى القصة :

★★★

« كنت فى الثالثة عشرة من عمرى حين وفد على دارنا ضيف جليل الشأن عريض الصيت ، اهتزت المنطقة كلهــا لمقدمه .. واعتبرت نزوله بساحتنا شرفا لم يظفر به سوانا.

ولن أصف لك مبلغ احتفالنا به .. ولن أصور لك مدى ايماننا بأن البركة حلت معه ، فلقد كان ملء الأسماع مهابه وتدينا وتقى ، ويا ما أكثر ما رووا عن كراماته من أعاجيب، بحيث أصبح الشك فيها اثما لا يغتفر .

« وخيل الينا جميعا أن دارنا بدأت تشع نورا بهيا منذ حل الشيخ بها .. وأقبلت الوفود من شتى الأنحاء ، تلتمس بركته وتجتلى طلعته وتزف الينا التهنئة الحارة ، فكان لنــا من ذلك كله ما نفخر به ونباهى ..

« من أين جاء ؟ ..

لم أكن أدرى على التحقيق ، وانما الذى عرفته يومئــذ انه ولى أعجمى من أولياء الله الصالحين .. أفنى عمره فى الزهد والتعبد ، حتى عرف طريق الوصول وحل فيه السر الأكبر . وانه ليضرب فى أرض الله الواسعة سائحا لا مقر له ولا دار ، فكل هذه الأرض داره يحل منها أين شاء فتحــل

معه البركة والخير ، ثم يأتيه الأمر فيرحل تاركا للقوم وراءه زادا من أغرب القصص وأعجب الكرامات !

ومضينا جميعا نتنافس في ارضاء الشيخ والتقرب اليه وتنفيذ تعاليمه ووصاياه ، حتى أصبحنا ذات يوم وأمي تصر فجأة على ألا يجمعها وهذا الرجل مكان !

فكأنما زلزلت الأرض تحت أقدامنا جميعا !

وعبثا حاول أبي أن يصرفها عما سماه وسوسة الشيطان الخناس .. فلقد جمعت ملابسها واعتزمت الرحيل ، وهي تتشبث بي وتريد ألا تدعني في البيت من بعدها .

فلما رأت اصرار أبي على بقائي معه .. اضطرت الى أن تقذف باعترافها الرهيب على مسمع من الولي الشيـخ ، وأن تتهمه بأبشع ما يتهم به نذل وضيع ، يخون ثقة من امنوا به وائتمنوه على أعز حرماتهم .

فكان جوابه أن رفع وجهه الى السماء يستغفر لأمي .. أنها كانت من الخاطئين ..

وأكب أبي على قدميه يقبلهما في ضراعة باكية !

« وخرجت أمي من الدار الى غير رجعـة . وبقيت أنا حزينة حائرة ، يرهقني التفكير في اللغز المحير .. فلقد كان ايماني بصدق أمي وطهارتها ، يعدل ايماني بتقوى الرجل وزهده .

فهل أساءت أمي فهم الرجل وكانت في استرابتها منـه واهمة ؟

أو أن ابليس اللعين قد حقد على الشيخ الصالح فوسوس الى أمي بالذي كان ؟

أسئلة حيرتني أياما وليالي ، دون أن أهتـدي فيهـا الى جواب ..

ومضت أربعة أشهر ، تفانى خلالها أبى فى خدمة الولى الصالح تفكيرا عما سماه خطيئة أمى .. وكأنما أراد أن يثبت له صدق ايمانه به وثقته فيه ، فندبنى لخدمته الخاصة كى تلحقنى بركته ..

ولم تمض الا أيام معدودات ، حتى روعت بجواب عن كل أسئلتى ..

لقد أراد الشيخ أن يغتصبنى وهو يزعم لى أنه مأمور بذلك ، فخرجت الى الطريق أعدو صارخة مذعورة .

ولحق بى والدى ليأمرنى أن أستغفر وأتوب ، لعل الله يصرف عنى لعنة أمى ..

وعاد يكب على قدمى شيخه متوسلا اليه فى ضراعة أن يسامحنى ، فأنا ابنة الخاطئة ..

ولم تطلع شمس الصباح على وأنا فى القرية ! ..

تسللت فى الفجر هاربة أعدو .. لا مقصد لى ولا هدف ، الا الفرار من ذلك الجحيم الذى صارت الخطيئة فيه عبادة وتقوى ، والعفة اثما ومعصية !

« وشاء لى القدر أن ألتقى فى رحلتى بجماعة من البدو الرحل يتأهبون للرحيل الى امبابة ، على ظهر أحد المراكب الشراعية ..

وصورت لى سذاجتى أننى لا أكاد أضع قدمى فى القاهرة حتى أعثر على أمى التى قيل انها نزحت الى هناك .

فلما بلغت غايتى ، لم ألتق بأمى أبدا ..

وبدأت حياة جديدة شاقة شائكة ، ولم يكن لى من زاد أستعين به فى غربتى ووحدتى ، الا الكفر بمقاييس الطهر والدنس . والحقد على الرياء والنفاق .

وهكذا تفتح شبابى فى المدينة الخطرة ، وشبح الولى الصالح يطاردنى ساخرا بكل ما تعلمت فى طفولتى من مكارم

الأخلاق ، وصدى صوت أبى يملأ الفضاء من حولى ، مرجعا ضراعته لشيخه :

ـ سامحها يا سيدنا الشيخ ، فانها ابنة الخاطئة » .

★★★

وبترت الراقصة حديثها فجأة ، ثم انصرفت مسرعة وهى تعتذر لى عما ضيعت من وقتى !

وانثنيت فى بطء وجمود ، أقرأ الورقة التى تركت فيها عنوانها ، فاذا بها تعمل فى ملهى « كوبرى الجلاء » على بعد خطوات منى ..

ونهضت أحاول أن أفيق من ذلك الجو الراكد الخانق كيما أسترد نشاطى ويقظتى ، وأستعد لامتحان الغد .

لكن اليوم كله مضى ، وأكثر الليل ، وأنا أصغى شبه ذاهلة ، الى الضجيج المنبعث من الملهى القريب .. وأحاول جاهدة أن أميز فيه صوت الراقصة ..

ولبثت كذلك شهورا ذات عدد ، حتى انتقلت « كلية البنات » من الأورمان الى الزمالك .. وذابت أصوات الملهى فى الطريق الطويل ، فلم يعد يصل الى أذنى سوى رجع الصدى ..

وبدأت « الراقصة » تغيب عنى شيئا ، اللهم صورة لها براقة ، كانت تلقانى كلما مررت بملهى الكوبرى فى طريقى الى الجامعة .

ثم غيبها الزمن عنى مدى عشرة أعوام أو تزيد .. فلم أعد أسمع عنها خبرا ، حتى كان صبح واجم من شهر مايو الماضى ، فاذا بصورتها تبعث أمامى فجأة ، واذا بالحديث عنها يشغل كل صحف الصباح ..

كانت قد أمضت النصف الأول من ليلتها راقصة شاربة لاهية ، ثم أمضت النصف الثانى جثة راقدة فى قاع النيل ، غير بعيد من الملهى الذى كانت تعمل فيه .

ولبثت الصحف أياما وأسابيع ، تتحدث عما زعمت أنها عرفته من تاريخ الراقصة ، وزيجاتها ، ومغامراتها ، وتسخر بما قالت الاعلانات الأولى عن انتمائها الى « أسرة كريمة بالصعيد » فأرثى للضحية التعسة ، سليلة بيت العلم والدين .

كما راحت الصحف ترجم بالظن فى تقدير ثروتها الضخمة المودعة فى خزائن البنوك ، والتى توشك أن تئول الى ابنتها الوحيدة ..

ثم ... فتحت الخزائن ، فاذا بها صفر خلاء ، الا من ذكريات ...

هنالك فرغت الصحف من أمرها ، ونفضت يديها لتفتش عن جديد طريف من أخبار الغوانى والراقصات ..

★★★

• الذئاب

« واذا الموءودة سئلت • بأى ذنب قتلت »

عندما بشر بمولد أنثى اسودت الدنيا فى وجهه ، وخرج من داره متعثر الخطو ذاهل اللب شارد النظرات ، وحملته قدماه الى الطرف الأدنى من زراعته الواسعة ، فوقف هناك يدير عينيه فى ذلك الملك العريض ، والحسرة تمزق قلبه وتفرى كبده •

وشردت تأملاته ، وأفلت زمام وعيه ، فاذا به يهيم على وجهه فى طى الماضى الذى ولى وراح •

على أن ذكرياته لم تمض به الى أبعد من عامه العشرين ، كان كل ما قبل ذلك العام مبهما ضائعا يغشاه ضباب كثيف •

ورأى نفسه يخرج من هذه القرية ذليلا مهانا ، فيساق الى « القرعة » لأنه لم يملك واحدا وعشرين جنيها يفتدى بها نفسه من «الجهادية» التى كانت حينذاك ضريبة مفروضة على الفقراء وحدهم •

كان الوضع اللئيم قد سلب الجندية شرفها حين جعلها

سمة مميزة لأولئك الفقراء الذين يعيى أحدهم أن يفتدى نفسه بجنيهات معدودات ، كما كان الاحتلال الخبيث قد مسخ معنى « الجهادية » حين سخر المجندين لخدمة اغراضه الاستعمارية وساقهم كالقطعان الى حيث شاء ، وحرم عليهم الجهاد النبيل فى سبيل الوطن ·

وما كان « عليوة » ليفقه شيئا من هذه المعانى الكبار ، ولا كانت عيشته الخشنة الغبراء بالتى تزهده فى المصير المبهم المكتوب على المجندين الأذلاء ، فقد اشبعه البؤس والعوز ذلا ، وسلبه الحرمان والتشرد كل معانى الكرامه التى يعتز بها بنو آدم ، على أن الذى أوجعه هو ان يلمح فى اللحظة التى سيق فيها الى التجنيد ، شابا ماجنا من أولاد الاثرياء ، يمد يده فى رقاعة فيربت على ظهر اخته « خضرة » التى كانت واقفة هناك ، ترنو الى اخيها « عليوة » بعين دامعة ·

واحس المسكين بأنياب الذئب وهى توشك أن تنهش لحم الفريسة الضائعة التى لم يعد لها بعد أخيها من يحميها من عدوان الضوارى ، فاندفع نحوها يريد أن يخنقها قبل ان يرحل ، ليضعها فى حمى القبر حيث لا ينالها غاصب مسعور ولا يطمع فيها ذئب ضار ولا ينبحها كلب نجس ، لكن حراسه أمسكوا به دون غايته ، ومضوا به بعيدا حتى أودعوه معسكر التجنيد ضائع الحيلة مهيض الجناح ·

وتمثل أخته فى أتعس الأوضاع ، وظل طيفها يلاحقه ويعرض عليه صورا شتى مما صارت اليه بعد ان تركها نهبا مباحا لذئاب البشر ، فاستحال غضبه لها نقمة على العوز الذى مزق عرضه وأذل رجولته ، وباتت هذه النقمه تؤرق لياليه الطوال وتغزو أيامه الموحشة بأحلام اليقظة ، فراح يهذى بلعنة الفقر ، ويتمثله أمامه عدوا شاخصا · وقد طاب له حينا أن يصوب نحو هذا الشبح البغيض قذائف مدفعه فى ساحة المعسكر ، وكلما خيل اليه أنه أصاب منه مقتلا ، عاد العدو المرهوب منتصبا أمامه وعلى سحنته البغيضة ابتسامة ساخرة ·

ونقلته ذكرياته الى المساء المشئوم الذى عاد فيه الى القرية بعد غيبة سنوات خمس ، ليجد فى ثراها بقية عفنة من جثة « خضرة » التى عاش فيها الذئب ، فبات المسكين ليلته عاكفا على هذه البقية ينبشها بأصابعه ، وقد غاض دمعه وجمدت عيناه وتصلبت ملامحه وماتت مشاعره ، فلما دنا الفجر خرج من القرية متسللا كاللص ، ومضى شريدا ضالا ، لا يدرى الى أين ..

★★★

ونسيته القرية كما نسيت أخته قبله . حتى عاد اليها بعد عشر سنين فلم تعرفه .

وأنى لها أن تعرف الصعلوك الضائع ، فى ذلك الرجل الوجيه الثرى !؟ بل أنى لها أن تلمح وراء الثياب الفخمة الغالية ، ذاك المسكين الذى لم تعهده ارتدى ثوبا سليما الا يوم نزعوا عنه رداءه الممزق البالى ، وألبسوه « بدلة السلطة » ؟!

واذ قال قائل من أهلها :

ـ ما أعجب الشبه بين الوافد الثرى وبين « عليوة » الصعلوك الطريد !

أجابته عشرات الألسن فى نفس واحد :

ـ سبحان ربك فى علاه ، يخلق من الشبه أربعين ..

وسهرت القرية ليلتها ولا حديث لها الا عن هذا الشبه العجيب بين الصعلوك الذى كادت تنساه ، وبين ذلك الوجيه الثرى الذى رسا عليه مزاد الضيعة ، ودفع من ثمنها عشرة آلاف جنيه عدا ونقدا ..

وصاحت احدى النسوة :

ـ عيني عليك يا خضرة ! لو أن الله الذى أعطى شبيه

أخيك كل هذا المال ، أعطاكم منه واحدا وعشرين جنيها لا أكثر لتغير مصيرك التعس •

فزجرها فقيه القرية قائلا ووجهه الى السماء :

ـ اتقى الله يا ولية ! سبحانه ، قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملام •

على أن أحدوثة هذا الشبه لم يطل بها الوقت ، فما هل نور الصبح حتى جاء النهار بأعجوبة أخرى جديدة ، محت كل ما نسجه السمار فى ليلتهم عن الشبه بين الثرى والصعلوك !

فقد ذاع فى المنطقة نبأ لم تلد الليالى أعجب منه ولا أغرب !

وطاف ذلك النبأ يدور القرية جميعا ، ثم انتقل الى الغيطان فما ترك هنالك مخلوقا دون أن يؤكد له أن مالك الضيعة هو « عليوة » بلحمه ودمه وعظمه !

وبدأت القرية من جديد تحرك الأساطير حول هذه الأعجوبة ••

فمن قائل ان « عليوة » وقع على كنز خفى من كنوز الفراعين فى « منقباد » فباعه لأجنبى من هواة البحث عن الآثار بألوف من الجنيهات •

وآخر يزعم أن هذه الثروة جمعها (عليوة) من التستر على مهربى المخدرات عبر الصحراء الشرقية طول السنوات العشر التى عمل فيها جنديا بسلاح الحدود •

وثالث يؤكد عن مصدر ثقة ، أن « عليوة » تعرف فى العريش بيهودى يزيف النقود بمهارة فائقة ، بحيث تفوت على أى صيرفى خبير ، وقد اتخذ المزيف من الجندى الفقير « عليوة » عينا له على السلطة ، ويدا لتصريف البضاعة المزيفة ، فخرج هذا من العملية ، ببضعة ألوف من الجنيهات استثمرها فى التجارة بالسوق السوداء •

ورابعة من عجائز الحى تكذب هاتيك المزاعم ، وتحلف بالله أن تابعا لها من الجن أتاها بالخبر اليقين ، فقد حدث أن طلعت « بنت سلطان الجن » من مملكتها السفلى فى رحلة لها بالبيداء ، فرأت الجندى الأسمر يقف وحده مع الليل البهيم، يبكى أخته التى أضاعها الفقر ، فرقت الأميرة لحاله وأمرت أتباعها فحملوا اليه ثروة من كنوز سليمان آ

وسخر كهل متنور من خرافة العجوز الحمقاء ، مؤكدا أن ليس فى الأمر جان ولا شبه جان ، وانما هى غنيمة ظفر بها « عليوة » عندما طارد نفرا من الصهيونيين كانوا يحاولون التسلل من مصر بأموالهم ، وقد دفن « عليوة » غنيمته فى مخبأ مجهول بالصحراء حتى عاد اليه بعد أن أمن العيون والارصاد ، واطمأن الى أن أحدا من زملائه لا يرتاب فيه .

وقد بلغت هذه الأقاويل كلها سمع « عليوة » فألقى بها وراء أذنيه فى غير مبالاة ، وماذا كان يعنيه مما قيل ويقال ، وقد غدا مالكا لأكبر ضيعة فى الاقليم ؟

وانه ليذكر فى وقفته تلك ، كيف تنافست الأسر العريقة على التقرب منه والتودد اليه ، وقامت بينها حرب خفية ومعلنة لتظفر به صهرا ، وقد طاب له أن يشهد المعركة المحمومة حوله ، وأن يزيد ضرامها اشتعالا ، دون أن يفكر فى الزواج ، بل اتخذ من صيد النساء بشبكته الذهبية لعبته المفضلة وهوايته الأثيرة ، ووجد لذته الكبرى فى اللعب بهذه الدمى البشرية التعسة التى يلقى بها القدر فى شباكه الوهاجة الصفراء .

وكانت أولى ضحاياه ، ابنة غريمه القديم الذى افترس « خضرة » .

وأما ضحاياه الأخريات فما يكاد يحصيهن عدا ..

حتى تورط أخيرا فتزوج من صبية بدوية أعياه أن يصيدها ، وهذه هى تضع له أنثى !

وخيل اليه أن القدر يعد طفلته لمصير فاجع ، انتقاما للضحايا اللواتى عبث بهن لاهيا ..

وعادت به ذكرياته من حيث بدأت ، فلاحت أمامه « خضرة » فى ثوبها المدنس وعرضها الممزق تحف بها أولئك الضحايا الأخريات ..

ثم اختلطت الصور وتشابهت ، فاذا به يرى فيهن جميعا ، طفلته الوليدة التى خرجت الى الدنيا منذ لحظات !

★★★

وأدركه الليل وهو مغرق فى شروده يحدق مرتاعا فى الصور المختلطة والأشباح المتدافعة ، فولى هاربا وقد امتلأ منها رعبا !

وسرى متخبطا فى موج من الظلمات ، والأشباح تطارده وتأخذ عليه كل سبيل ، والكلاب العاوية تنبحه فتتمثل له « خضرة » من جديد ، فى مسراها الضال الأعمى فى وسط الوحل والظلام .

ثم لاح له آخر الأمر شعاع من ضوء يسطع من نافذة الوالدة فى بيته ، فاتجه نحوه وعيناه مشدودتان اليه كأنما يخاف أن يفلته فيضل الطريق ..

وبلغ مأمنه ، أو هكذا خيل اليه حين دخل بيته وأضاء كل مصباح فيه ، ليذود الأشباح المطاردة ، لكنه ما كاد يلمح طفلته حتى فح بصوت غليظ أجش :

« خضرة » ؟

ذلك أنه رأى فى وليدته ، أخته الضائعة ..

ووقف يحدق فيها مأخوذا . ثم امتدت يده الخشنة الباردة فأطبقت على عنق الوليدة ولم تفلتها الا جثة هامدة !

وتنفس مرتاحا ، وأحس كأنما انزاح عن صدره حجر ثقيل ظل يكتم أنفاسه عشرين سنة أو تزيد ..

ولم يفكر قط فيما قد يحدث بعد ذلك ، بل عاش فى لحظته هذه ، يستمرىء طعم انتصاره هذه المرة ، اذ سبق الذئاب الى طفلته ، كما اشتهى أن يفعل بأخته من قبل فحيل بينه وبينها ، وكان ما كان مما لا ينبغى أن يتكرر أبدا ..

• عـــاليــة

« وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم .. »

مضى يشق أحشاء الليل وحيدا صـامتا ، فعرفت فيـه القرية (علوان) ابن (الحاج فراج) شـيخها الكهل ، الذى سيق الى السـجن منذ أيام ، مخضـب اليدين بدمـاء ابنته (عالية) .

ولم تكن القرية قد فرغت بعد من الحديث عن مصرع الفتاة التى طالما زها بها أبوها واعتز ، وكانت أمها قد ماتت عنها وهى طفلة ، وما لبث أبوها أن تزوج من امرأة مجهولة الأصل ، فكفل الطفلة خال لها يقيم بالمدينة ، حيث أتاحت لها الاقامة الطويلة هناك ، حظا من النعومة والتهذيب لم يتح لسواها من بنـات المنطقـة ، اذ كانت الوحيـدة التى نالت الشهادةالابتدائية وأوشكت أن تنال شهادة (الفنونالطرزية)، لولا أن أباها أنكر عليها فجأة أن تظل بعيـدا عن عينيـه ، بعد أن نضج صباها ، فاستردها من بيت خالها بالمدينـة ، وأمسكها فى الدار تحت سمعه وبصره .

وأدرك أهل القرية أن زوجة أبيها هى التى أوعزت اليه بحجزها فى الدار ، بما ملأت به أذنيه بأقاصيص عن (فجور) بنات المدينة وخلاعة (تلميذات المدارس) حتى أراح (الحاج فراج) نفسه أخيرا فسد الباب الذى يأتيه منه الريح ٠

★★★

وشاعت الشائعات عن قسوة الحياة الريفية على ربيبة الحضر ، وبخاصة مع امرأة أب ، اشتهرت بشراسة الطبع وحدة المزاج والاسراف فى الأنانية والتهالك على ارضاء أهوائها الجامحة ٠ وقيل فيما قيل ، انها ما فتئت منذ عادت الفتاة ، تستثير غضب الأب عليها بالالحاح فى الحديث عما أحدث التعليم ، وطول الاقامة فى المدن ، من أثر سيىء فى أخلاقها ٠ لكن الأب ظل يدافع عن فتاته ، ويدفع عنها كيد زوجته ما استطاع ، واثقا أنها انما تحقد عليها ، لرفضها الزواج من أخ للزوجة فاسد منحل ، لفظته الملاهى والحانات بعد أن استنفدت آخر قطرة من حيويته ورجولته ٠٠٠

حتى روعت القرية ذات أصيل بمصرع الفتاة الجميلة بيد أبيها الشيخ ، وسيق القاتل الى المركز حيث اعترف بجريمته على الفور مؤكدا أنه لم يكن يظن سوءا على كثرة ما سمع من زوجته ، الى أن وقع فى يده خطاب مرسل الى الفتاة ، فلما قرأه روع بما فيه من نداء فاجر ، يلح على (عالية) أن تهرب عائدة الى المدينة لتستأنف علاقة آثمة بصاحب لها هناك ٠

وحين واجهها بالخطاب ارتجفت رعبا واشمئزازا من غضبه ٠ ثم لاذت بصمت مريب مزق أعصابه وأطار رشده فراح يهزها فى عنف وهو يهدر مطالبا باسم صاحبها المجرم ، فكان جوابها أن قالت فى احتقار وهى تحاول التخلص من قبضة يده :

« دعنى ، فلست أبى ٠٠ »

وهنالك لم يتمالك نفسه ، فظل يضغط بيديه على عنقها ، حتى سقطت جثة هامدة .

وأحيلت الجثة الى الطبيب الشرعى فجاء يشهد بأنها قتلت عذراء طاهرة لم يمسها بشر ..

وقال الذين شهدوا الأب القاتل عندما تلا عليه المحقق تقرير الطبيب الشرعى ، أنه تهاوى على الفور جاحظ العينين أخرس اللسان مشلول الحركة فحملوه الى مستشفى السجن ميئوسا من نجاته .

وجاء ابنه من أقصى الصعيد يسعى الى مسرح الجريمة ، وكان قد اعتزل أباه بعد زواجه الثانى ببضعة أشهر ، مرحبا بفرصة (التجنيد) فلما أتم المدة المفروضة ، كره أن يعود الى القرية ، والتحق بمعسكر (منقباد) فى أعالى الصعيد .

ومضت أعوام ذات عدد ، لم ترد القرية خلالها غير مرة واحدة ، حتى وقعت المأساة الفادحة التى أزهقت روح الأخت الحبيبة فى ريعان صباها ولوثت يد أبيه الشيخ بالدم الطاهر المسفوح .

ورأته القرية فى ذاك المساء المعتم ، يعود من مستشفى السجن بالمركز الى دار أبيه متشحا بعباءة سوداء ، جامد الملامح زائغ البصر . وأبى أن يتقبل فى فقيديه عزاء .

وجمدت عيناه فلم تذرفا دمعة واحدة ، وان ظل مع ذلك يغدو إلى المركز والمستشفى كل يوم ، ثم يؤوب فى المساء وحيدا صامتا ، فى هدوء اليأس من استرجاع ما فات ، المستسلم لما هو آت .

ورحمه القرويون فتركوه يمارس رحلته اليومية دون أن يرهقوه بصحبتهم أو يلحوا عليه بالعزاء ، بل كان اقصى ما يقوله أحدهم حين يلقاه ساريا فى أحشاء الظلمة بعد مقابلة المحامى ، وعيادة أبيه المشلول :

ـ شد حيلك يا علوان ، آدى حال الدنيا ...

ثم يمضى عنه ، غير منتظر ردا ...

***

لكن اشاعة خبيثة ما لبثت أن سرت هامسة فى القرية ، تفسر جمود الفتى تفسيرا بشعا ، وتعلن أن المقام قد اطمأن به الى جانب زوجة أبيه فى الدار ، وما رحلته اليومية الى المستشفى ، والمحامى ، والنيابة ، الا ذرا للرماد فى العيون .

ووجمت القرية لما سمعت ، فقد كان الفتى الجندى ــ كما كانت أخته وأمه من قبل ــ رضى الخلق أبيض السمعة طاهر الذيل . ولعلها ما كانت لتصغى الى اشاعة خبيثة كهذه لولا أن رابها من زوجة الشيخ السجين المريض ، اسرافها فى التزين الى حد غير مألوف فى الريف ، وبخاصة فى مثل تلك الظروف التعسة التى أعقبت المأساة .

وقد حدثوا أن المرأة بعثت الى المدينة من جاءها خفية بزجاجة من (عطر القسيس) وعلبة من المسحوق الأبيض الذى تطلى به الغوانى وجوههن ، وثوب من الحرير الوردى ، قيل انها تلبسه كلما أمنت من أعين الرقباء .

وراحت نسوة من الحى يرصدن خطاها عن كثب ، ويحصين حركاتها دون أن تشعر بذلك ، وأكثرن من زيارتها متظاهرات بالعطف على شبابها الذى يطفئه الحزن ، ويذبله المصاب من أجل جريمة لا ناقة لها ولا جمل . ثم عدن الى القوم يروين الأعاجيب عن شعرها اللامع المعطر ، وعن وجهها الزاهى المطلى بالأبيض والأحمر ، وزادت احداهن فأقسمت أنها لمحت تحت ردائها الأسود ذيل قميص من الحرير الوردى .

ووجد القرويون فيما سمعوا من هذا كله متعة مثيرة ومادة شهية للسمر ، شغلتهم حينا عن شيخهم الراقد فى المستشفى ينتظر مصيره التعس . وتوارت نظرات العطف والرثاء للشاب الثاكل ، وحلت محلها نظرات أخرى فاحصة

مستريبة ، تلاحقه فى غدوه ورواحه كأنما تلتمس ما يؤيد الذى شاع عن صلته بزوجة أبيه ٠

حتى اذا ارتوت القرية مما سمعت ، ولم تعد تجد فيه جديدا يثيرها ، ضاقت بفتاها ، وأنكر أهلها مقامه الذى طال بينهم ، وتشجع أحدهم فسأله ذات مساء وهو عائد الى الدار :

ــ أما تنوى يا علوان أن تعود الى عملك ، أم لعل المقام طاب لك فى الجنة ، فنبذت حياة الجندية الخشنة ، وعولت على ألا ترجع الى (منقباد) ؟

ولأول مرة أجاب الفتى :

ــ أجل ياعم ، لن أعود الى منقباد ، لكنى راحل غدا على كل حال ٠٠

★★★

وجاء الغد فرحل الفتى ٠٠

رحل ساعيا على قدميه الى مركز البوليس ، حيث أسلم نفسه هناك ، معلنا أنه خنق زوجة أبيه وأذاقها طعم الميتة التى ذاقتها أخته (عالية) ظلما وعدوانا ٠

ولم تصدق القرية أذنيها ٠ فقد كانت تنتظر بين لحظة وأخرى ، أن يفر الشاب بزوجة أبيه الى مكان بعيد مجهول ، ينجوان فيه من مطاردة الأعين المستريبة ، والألسن التى لاكت سمعتهما وأنكرت مقامهما معا تحت سقف واحد ٠

فهل حقا قتلها ؟

أجل ، وهذه جثتها ملقاة على أرض القاعة حيث صرعت (عالية) البريئة من قبل ، وهذا شعرها المضمخ بالعطر تفوح منه رائحة نتنة ، وهذا وجهها المطلى بالمساحيق قد علته زرقة غبراء كئيبة ، وجحظت فيه العينان المكحلتان ٠

اذن فقد كانت الاشاعة الخبيثة عن صلة الفتى بالزوجة

العابثة كذبا مفترى ، فما طاب له المقام بالدار قط ، وما كان جموده عن رضى واستسلام ·

★★★

وحانت ساعة محاكمته ··

وبكر أهل القرية فسعوا الى ساحة القضاء مع مطلع الصبح يريدون أن يقفوا بجانب القاتل فى الساعة الحرجة، وليس فيهم من لا يود أن يستغفره وأن يكفر عن الاشاعة المسمومة الظالمة ·

والتفوا حوله داعين ، حتى اذا فتحت الجلسة سمعوا ما أذهلهم : سمعوا أن الفتى لم يكد يطلع على الخطاب المشئوم الذى أطار لب أبيه حتى عرف فيه خط يد طالما كتبت اليه ·

وذكر وكيل النيابة المحقق ، أن المتهم قدم اليه تسعة خطابات بنفس الخط مرسلة اليه من زوجة أبيه ، مليئة بعبارات عامية مبتذلة ، تشكو هجر الفتى وصدوده ، وتعتب عليه أنه لا يحضر فى أيام العطلة الى القرية لكى يريح المعذبة لفراقه ·

وفى خطاب منها الحاح فى الدعوة لقضاء عطلة العيد الكبير فى الدار ، حيث يذهب أبوه بعيدا لأداء فريضة الحج ·

وجىء بابن حلاق القرية ، فشهد بأن الزوجة استكتبته هذه الخطابات جميعا لقاء أجر معلوم ، كما استكتبته خطابا الى (عالية) قبل مصرعها ، ثم أجزلت له العطاء نظير ذهابه الى المدينة ليبعث الخطاب من هناك الى (عالية) فى دار أبيها ·

ووصف محامى المتهم ، كيف تفننت الزوجة الآثمة ـ منذ جاءت دار الشيخ ـ فى اغراء ابنه الشاب ، حتى آثر أن يهجر القرية كيلا يثير فضيحة فى الدار ، ثم وصف كيف تلقت الزوجة عودة (علوان) بعد مصرع أخته بترحاب حار، وكيف أسرفت فى التودد اليه واللهفة على قربه والالحاح فى اغرائه، وهو يكظم حقده ويكبت غضبه رحمة بأبيه الثاكل المشلول ·

وأملا فى أن تكشف له العابثة عن سر الخطاب الذى ارتاب ـ منذ سمع حديث أبيه ـ فى أن لها صلة به ويدا فيه .

ثم كان أن أطلع على الخطاب ، فروعه أنه مكتوب بالخط الذى يعرفه . وتساءل المحامى : هل فى طاقة بشر يقف موقف (علوان) أن يتمالك وعيه وأن يجمد أعصابه ويضبط انفعاله ، وأن يشل يده فلا تمتد الى عنق الآثمة التى عبثت بشرف أبيه ، وعرض أخته ، ثم أضاعت حياتهما وحياته جميعا ؟

هتف السامعون جميعا :

ـ كلا .

وأما القضاة فغالبوا عواطفهم وداروا تأثرهم ولاذوا بالقانون يلتمسون عنده الكلمة الحاسمة ، ثم عادوا فأعلنوا حكمه على القاتل بالسجن سبع سنين .

واستسلم (علوان) لحراسه وهم يعودون به الى عربة السجن ، على حين وقف أهل القرية واجمين لا يستطيعون حراكا ، ثم اندفعوا فجأة يريدون أن يلحقوا بالبطل الشهيد ، فذادهم الحراس فى رفق ، ثم مضوا به بعيدا فألقوه فى غيابة السجن ...

• الــوارثـــة

وكانت موقنة أنه أعجز من أن يفر من تلك الجحيم التي تفننت في صنعها ، اذ أن « الطين » الذي ورثته ، قد ربطه اليهـا بسلاسل غلاظ لا فكاك منها ولا خلاص !

عندما أعلن الخادم مجيء مفتش الصحة ، لف المخـدع صمت مترقب وتطلعت العيون الى الطبيب الشاب وهو يخطو متئدا في ســمته المهيب ليعلن كلمــة الطب في وفاة السيد الميت .

ومزقت الصمت شهقة خافتة مكتومة ، ندت عن شــابة تقف هنــاك في زاوية من زوايا المخــدع قريبــا من فراش الراقد ، فاتجهت اليها الأنظار حينا ، ثم ما لبثت أن تحولت عنها حين بدأ الطبيب يفحص الجثة المسجاة .

واذ ذاك همت الشــابة تنســحب من الغــرفة ، لولا قوة نفسية قاهرة آمرة عطلت ارادتها فأمسكتها الى مكانها بادية الشــحوب والضعف ، فبقيت حيث هي ، مطــرقة الــرأس ، خافضة الطرف .

ولم يطل بها الموقف ، فقد كانت مهمة الطبيب قصيرة المدى ، اذ الوفاة طبيعية لا شك فيها ولا ارتياب ، فأذن لأهل الميت فى تشييع فقيدهم ، ثم انصرف دون أن يزايله اتئاد حركته ووقار مهنته ، وان بدا عليه أنه يبذل جهدا واضحا لكى يتجاهل تلك التى شهقت ساعة رأته ، غير أنه ما كاد يصل الى سيارته حتى ألقى نفسه على مقعدها الخلفى واجما يتذكر ٠

وفى الطريق من قصر الثرى الميت ، الى مدينة المنصورة الواقعة على بعد أربعين كيلو مترا ، عادت به ذاكرته — على الرغم منه — الى ماض غير قريب حيث كانت هذه الشابة التى لقيها اليوم على غير انتظار ، تشتغل خادمة فى بيت أسرته ٠

ولم يكن يعرف يومئذ عنها الكثير ، فقد شغلته دراسة الطب فى العاصمة عن الاهتمام بتوافه المخلوقات أو الالتفات الى ما يجرى فى عالم أسرته المحدود من صغير الأمور والأحداث ، وقد اعتاد أن يقيم العام الدراسى كله بالعاصمة، فاذا أهل الصيف ، نزح مع أبويه الى ساحل البحر فى مصيف (رأس البر) حيث تشغله هناك مجامع الزملاء والأصحاب ٠

وهكذا مضى عام فى اثر عام ، وهو يجهل ما يعرفه أكثر أهل المنطقة عن حياة (زهيرة) الخادمة الشقية ، التى كان صباها الناضر شؤما عليها ، وجمالها الحى اثما لا يغتفر ٠٠

وقد ظلت تنتقل من دار الى دار ولعنة الصبا والجمال تلاحقها حيثما راحت ، وحقد (السيدات) من ربات البيوت التى عملت فيها ، يثير حولها عاصفة ظالمة من الريبة والشك، حتى استقر بها المقام أخيرا عند أسرة تاجر كريم رضيت أن تؤويها على الرغم مما تناثر حولها من شائعات السوء ٠

وكانت سيدة الأسرة ، كهلة طيبة متدينة تتقى الله فى أمثال هذه الطريدة المضطهدة ، وترى من الاثم أن تصغى فيها الى أراجيف وظنون

وهكذا هيأت السيدة للفتاة مستقرا ومأوى ، دون أن تخشى فتنة جمالها على زوجها الشيخ الزاهد ، أو ولدها الوحيد الذى كان يدرس الطب بعيدا فى العاصمة .

لكن السيدة الكريمة ماتت راضية فى الديار المقدسة ، ومن تلك اللحظة بدا مكان (زهيرة) فى الدار ينبو بها ، فلقد ارتاب الابن الطبيب فى شعور أبيه نحوها ، وخشى ان هى بقيت الى جواره فى وحدته وترمله أن ينتهى الأمر بهما الى زواج يلحق بالأسرة عار الضعة وهوان المصاهرة . ولم يستبعد أن تلد (الخادمة) لأبيه أبناء صغارا يشاركونه الميراث المنتظر ، ثم يبقون بعد هذا وصمة تلطخ مستقبله بأخوة مهينة من أم خادمة .

وفى قسوة لا تعرف الرفق أو الرحمة ، طرد الطبيب (زهيرة) من البيت الذى ظنت أنه ملاذها ، وكان هذا آخر عهده بها ، فلم يرها الا اليوم ، عندما ذهب ليفحص الميت الثرى ، فتجاهلها وجهل موضعها فى القصر .

★★★

ووقف تفكيره فيها عند هذا الحد ، على حين بقيت (زهيرة) هناك الى جانب فراش الراحل تستعيد ذكرى ما لقيت من شقوة العيش والتشرد بعد أن طردها الطبيب من بيت أبيه فصممت وقتئذ على ألا تلتحق بخدمة البيوت بعد هذا أبدا ، وانتبذت مكانا قصيا فى أطراف المدينة ، حيث أقامت مع أرملة فقيرة كهلة ، تشتغل بصنع المكانس من القش والألياف ، ثم تبيعها لنفر من صغار الباعة الجائلين .

وقد وجدت (زهيرة) فى الأرملة الفقيرة صديقة وراعية ، كما وجدت فيها هذه ، خير من يعينها على عملها التجارى المتواضع ، اذ تعودت (زهيرة) أن تقوم كل أسبوع بجولة مرسومة تطوف بها حول المنطقة ، حيث مزارع الأرز والذرة وبساتين النخيل ، ثم تعود آخر النهار محملة بمادة رخيصة تكفى رصيدا للمصنع اليدوى نحو عشرة أيام .

وشعرت الفتاة بشىء من الرضى عن حياتها الجديدة التى تنعم فيها بما لم تنعم به قط من حرية وانطلاق ، وبدا عليها أنها لن ترضى عنها بديلا ، وكانت فى جولاتها الأسبوعية تعود متعبة الجسم ، لكنها لا تلبث أن تسترد كل نشاطها وحيويتها وراحتها ، عقب ساعات من النوم العميق ...

★★★

حتى خرجت ذات يوم على عادتها الى بساتين النخيل ، وحان موعد ايابها ولم تعد ...

ومضى الليل كله وراعيتها العجوز مسهدة الجفن قلقة البال ، فريسة لشتى الهواجس والظنون ...

وشاع الخبر فى الحى مع مشرق الصبح ، وظل القوم يرجفون بالظن فى تعليل غيبة الفتاة . فمن قائل ان شيطانا من الانس ترصد خطواتها واختطفها ، وآخر يزعم أنها سئمت ذلك العيش الفقير الجاف ، فانحرفت تلتمس المتعة والمال .

وثالث يقسم انها تعرفت فى جولاتها بشاب أغواها ، فاستجابت له ...

ورابع يرجح أن قدميها حملتاها بعيدا ، فلم تستطع الأوبة فى موعدها ، فباتت عند بعض من تعرف ، ولابد من أن تثوب آخر النهار ..

وخامس يحسب أنها أصيبت فى حادث ما ، اصابة أعجزتها عن المسير ، وسوف ينجلى الأمر عن قريب .

وسادس ... وسابع ...

★★★

وقد انجلى الأمر فعلا بعد أيام ثلاثة ، لكن على غير ما أرجف الظانون والمرتابون :

أتى رجل من أقصى المنطقة يسعى نحو الأرملة العجوز ، حاملا اليها رسالة من الفتاة الغائبة تقول انها بخير حال ، اذ التحقت بالعمل فى قصر سيد الاقليم ، ولا يعكر راحتها فيه سوى تألمها لفراق الصديقة الطيبة .

وفوجىء القوم بهذا الذى سمعوا ، وأغلقت الأرملة مصنعها وعادت مع الرسول لتطمئن بنفسها على «زهيرة» .

ثم رجعت فى اليوم التالى ، تؤكد للجيران أن سيكون لفتاتها شأن أى شأن ! .

ولم يشك أحد فى أنها تلمح ـ أو ترنو ـ الى احتمال ظفر الفتاة الشابة ، بأكثر من عطف الشيخ الثرى .

وأقاموا أياما ينتظرون خبرا من القصر ، لكن الأيام امتدت فصارت أسابيع وشهورا دون جديد .

كل الذى ترامى اليهم ، أنها تعيش فى ظل السيد الثرى معززة مكرمة ، وتشرف على كل صغيرة وكبيرة من شئون قصره ، ثم لا شىء أكثر من هذا ..

ومضى عليها فى القصر عامان ، بدا عليها فيهما من آثار العزة والنعمة ما فاض على صديقتها الأرملة ، وعلى أهل الحى جميعا .

★★★

ثم كانت المفاجأة التى أعقبت وفاة الثرى .

أو لعلها لم تكن مفاجأة ، الا لأن القوم قد انصرفوا عنها منذ حين ، لما طال عليهم أمد الانتظار ، ليسمعوا أخيرا أن « زهيرة » كانت زوجة شرعية للسيد الراحل ، وان بقى زواجهما فى طى الكتمان حتى حان الأجل .

أما كيف حدث هذا ، ومتى ، فضاعت تفصيلاته فى النبأ الأخير ، وهو أن ميراث زهيرة من زوجها ، قدر بمائتين وخمسين فدانا من أجود أراضى الاقليم .

ومن ذلك الحين ، أصبحت الوارثة محط الأنظار ، وحديث أهل المنطقة جميعا .. فلم تكد تقضى عدتها ، حتى تناقلوا أنباء الذين تقدموا يلتمسون يدها من سراة المنطقة وطلاب الثراء ، غير أنها ردتهم عنها واحدا بعد الآخر ، ولبثت ترتدى ثوب الحداد عاما بأكمله ، حتى ظنوا أنها آثرت أن تترمل ما عاشت ، وفاء لولى نعمتها ..

★★★

لكنها لم تفعل ، بل نزعت الثوب الأسود عنها عقب احياء ذكرى مرور العام الأول على وفاة الراحل الكريم، فكان هذا اعلانا عن زواج قريب .

ترى من ذلك الذى اختارته « الوارثة » من بين خطابها وهم كثر ؟

قيل انه « الطبيب » الذى نبذها بالأمس فى احتقار خشية أن تصمه بأخ ، أمه خادمة .

وكذب الناس الخبر ، فما كانوا يجهلون الذى ذاقته « زهيرة » من اذلال الطبيب ، لولا أنها ابتسمت لسذاجتهم ، وأكدت أن ليس بينها وبين الزواج الجديد الا أن يفرغ الطبيب العزيز من اجراءات فصم العلاقة التى تربطه بخطيبة له عريضة النسب ، لا تملك أكثر من ثلث (الطين) الذى تملكه الخادمة الوارثة .

والغريب أن « زهيرة » هى التى كانت تذيع هذا ، وتملأ الأفق به ، من غير أن تتنكر لحظة لماضيها الشقى الذليل ، بل بدت شديدة الحرص على تذكره وذكره ، كأنما كانت تجد فى ذلك لذة ومتعة .

والواقع أن الأمر لم يكن عندها مجرد متعة ، وانما أرادت أن تنتقم فى اشتفاء من ذلك الموقف المهين الذى لم تنسه أبدا ... موقف الطبيب وهو يرجمها ظالما ، ثم يلفظها من بيت أبيه كأنها قطعة من الدنس .

وتم الزواج المنتظر بين الوارثة ، والطبيب الذى كان غريمها بالأمس ٠

وشهدت حياتهما المشتركة صورا بشعة من صور ذلك الانتقام المشتفى ، فما كان يمر يوم واحد ، دون أن تشعر زوجها الطبيب بالخزى أمام أصدقائه وزملائه ، من سلوكها الذى حرصت فيه على أن تتقن دورها كامرأة محدثة النعمة ، حقيرة المنبت وضيعة النشأة ، فاذا ما أبدى الطبيب اعتراضا أو ضيقا ، اعتذرت بأنها كانت ـ كما يعرف ـ خادمة ذليلة ٠

ووعدته مائة مرة أن تحاول تهذيب سلوكها ، لكنه الوعد الساخر الذى ينتهى كل مرة بالتظاهر بالعجز عن مقاومة عادات راسخة ، وفطرة مستحكمة ، ووراثة قاهرة ٠٠٠

وقد نصح لها ـ فيما نصح ـ أن تقطع صلاتها بماضيها الحقير ، وأن تتجنب الاتصال بما عرفت أيام تجولها لجمع القش والألياف ، فتعده بأن تحاول ، ثم لا أكثر من الوعد ٠

وكانت موقنة انه أعجز من أن يفر من تلك الجحيم التى تفننت فى صنعها ، اذ أن (الطين) الذى ورثته قد ربطه اليها بسلاسل غلاظ لا فكاك منها ولا خلاص ٠

★★★

حتى أنهكه التعذيب فتمزقت أعصابه من أثر ذلك السم البطىء الذى لبثت زوجته الخادمة الوارثة ، تجرعه اياه قطرة قطرة ، فقرر ـ فى لحظة جنون كافر ـ أن يضع لعذابه ذاك حدا ، دون أن يجعل الوارثة تفلت منه بميراثها الضخم ٠

وسولت له نفسه الملتاثة أن يجرعها سما يقضى عليها فى بطء ولكن ذكاءها وحذرها غلبا حيلته وخباله ، فنجت دون أن يمسها أذى ، وظفرت بالطلاق منه بعد أن شفت نفسها من الاذلال القديم ، وبلغت من تأديب (السيد الطبيب) وتعذيبه ما تهوى ٠٠

ثم أسدل الستار على هذا الفصل من القصة ، ليرفع بعد حين عن الوارثة فى زى جديد : أنيق مهذب مترفع ، وعن طبيب مسكين منبوذ قد خسر الدنيا والآخرة ٠٠٠

• تحت الأنقاض

تحية لأمهات الشهداء فى المدينة الباسلة

لم أرها فى حياتى غير مرة واحدة ، حين مررت فى صيف عام ١٩٥٣ بمدينة بور سعيد وزرت بعض أقاربى هنـاك ، وكانت جارة لهم ، تتردد عليهم بين الحين والحين التماسـا لمعونتهم فى تربية ولدها الوحيـد اليتيم الذى تدخره لريب الزمان ، وترجوه سندا لشيخوختها الواهنة العاجزة •

وقد سمعت يومئذ الفصـل الأول من قصتها الأليمـة : نشأت فى بيت طيب بأحد النجوع النائية فى أطراف الصعيد، وسارت بها الحياة هادئة وديعة حتى نزل بالنجع شيخ دجال ، فتن قومها جميعا فأباحوا له الحمى واستسلموا له صاغرين مسحورين •

وقد اختار « حمدة » أجمل عذارى النجع عروسا له ، فزفها اليه أهلها فى ليلة عيد ، وقد أسعدهم أن تكون ابنتهم هى التى اصطفاها ولى الله المبارك دون بنات الناس جميعا ، غير أنه ما لبث أن رحل بها فجأة الى مكان مجهول ، وظل يوغل

بها فى متاهات الصحراء مشردا لا يقر له قرار ولا يطمئن به مكان من الأرض ، حتى انتهى بها المطاف معه الى احدى المغارات التائهة فى جوف الصحراء الغربية ، وهناك أصغت فى رعب ساحق الى اعترافه الرهيب بأنها لا تحل له ، اذ هى مسلمة وهو يهودى ، هارب من حكم الاعدام !

وجمد الدم فى عروقها ، فتصلبت فى مكانها مشلولة التفكير معطلة الحواس ، ثم لم تفق من ذهولها حتى كانت تساق مع المجرم الى نقطة البوليس مكبلين بالأصفاد بعد معركة عنيفة استنفد فيها الشقى كل ذخيرته من السلاح .

وأظهر التحقيق أنها ضحية تعسة من ضحاياه ، فبرئت ساحتها وأخرجت من السجن لتواجه الدنيا وحيدة غريبة ضائعة ..

ووقفت فى وسط التيه تنظر فى ذعر عن يمين وشمال، والى الأمام والخلف ، فلم تجد حولها الا المهمة القفر ، تائه المعالم مبهم المسالك ، فتهالكت هناك على الرمال ، مطأطئة الرأس فى خزى ، لا تجرؤ على رفع وجهها الى السماء بعد ما لحقها من اثم الزواج المحرم ...

وهمت بالانتحار ، دون أن يصرفها عن الموت خوف العذاب فى الآخرة ، فما كانت تطمع فى النجاة من الناس بعد الذى باءت به من عار ، وكادت تفلح فيما همت به ، لولا أن أدركها فى اللحظة الأخيرة ، رجل كريم من الجنود الذين طاردوا الشقى المحتال ، وعرفوا مأساتها معه ، فمد اليها يده ومضى بها الى المأذون حيث عقدوا زواجهما على سنة الله ورسوله ، ومن ثم حملها الى بيته فى رفق ومواساة ..

ومازال بها : يأسو جراحها ويهون عليها شعورها بالخزى من ذنب لا يد لها فيه ، حتى أفلح أخيرا فى اقناعها بأن رحمة

الله التى وسعت كل شىء ، قد تداركتها فى لحظة اليأس الكافر لتحميها من الضياع وترد عليها نعمة الايمان ٠

وأمهلتها الدنيا ريثما استعادت زهو شبابها وعزة طهرها ، ثم حملها تيار العيش مع زوجها الى بور سعيد ، حيث ودعها هناك وانطلق مع الجيش الذى اشترك فى حرب فلسطين ، وقد أقسم اليها قبل أن يمضى ، لينتقمن لها من عصبة الدجال الأثيم الذى سمم عيشها واغتال صباها وكاد يقذف بها الى الهاوية ٠٠٠

وأقامت « حمدة » تنتظر أوبة زوجها ، ولكنه تخلف هنالك على ثرى « الفالوجة » شهيدا ٠٠٠

ولم تحطمها محنة فقده ، اذ كان عليها أن تعيش من أجل ولدهما الوحيد الذى تركه أبوه فى حضنها وديعة غالية ٠٠

وكان ولدها يستقبل عامه الثامن عشر يوم لقيتها فى بور سعيد منذ بضع سنوات ، أما هى فكانت تدنو من الشيخوخة بخطوات وئيدة ، متشبثة بالحياة هاذية بحلم الثأر ٠

وأذكر أنى قلت لها يومئذ :

ـ هونى عليك يا حمدة ، وحاولى أن تنسى ما فات ، فانى لأخشى أن تفسدى الحياة على ذلك الشاب ، بطول ما تتحدثين عن ثأر مزدوج لأمه وأبيه ، والغريم الأول قد لقى حتفه ، والآخر مجهول ٠

فهزت رأسها وهى تقول :

ـ كلا ، بل ان ولدى ليعرف غريمنا ، فكل واحد من العصبة الصهاينة الشريرة عدو لنا ٠

سألتها :

ـ فهل يرضيك أن ينطلق وحيدك ذات يوم الى وكر العصبة سعيا وراء ثأره ، فيلقى مثل مصير أبيه ؟

فما راعنى الا أن أجابت فى اصرار :

ـ أنا صعيدية ، ولمثل هذا تلد نساء قومى أبناءهن !

★★★

وغادرت « بور سعيد » الى بحر الشمال ، وطيفها يتراءى لى طوال الأيام والليالى التى أمضيتها فوق الموج ما بين مصر وروتردام ، ثم ما لبث الطيف أن غاب وتوارى وسط زحمة المشاهد الجديدة التى لقيتنى فى أقصى الشمال ..

حتى كانت معركة « بور سعيد » فذكرت « حمدة » أول من ذكرت من أقارب لى وصواحب فى المدينة الباسلة ، فكأنما كنت أراها بعينى وهى تعش آخر الأمر على غريمها العدو ، وتقدم وحيدها لليوم الموعود الذى عاشت تنتظره سنين عددا !

وتمثلتها هناك ، تهب من مرقدها على دوى القذائف الراعدة ، فتلوح لها على البعد قطعان من ذئاب صهيون العاوية ، تتجمع فى الساحة الشرقية متربصة ، فى انتظار اللحظة المترقبة التى يفتح لها فيها حلفاؤها الأنذال ثغور المدينة المصرية ، لتعيث فيها وتنهش قلب الوطن العربى ، عدوها الألد ..

وتتابعت الأنباء المثيرة عن النضال الباسل ، فكأنما كنت أجد « حمدة » فى كل أم هناك ، وكأنما كنت أجد ولدها الوحيد فى كل بطل وشهيد ، من هؤلاء الذين أصروا على أن يعيشوا كراما أو يموتوا كراما ، واسترخصوا الحياة فداء للوطن ...

★★★

وأمس لقيت من حدثنى عن « حمدة » وولدها ...

كانت تحتفظ بسلاح زوجها أمانة غالية ريثما يكبر ولدها ويشتد عوده ويقوى ساعده ، فلما تعرضت بورسعيد

للعدوان المثلث الغادر ، أخرجت سلاح الشهيد ، وأسلمته لابنها ثم دفعت به الى خط النار ...

ومضت أيام رهيبة عصيبة ، والأم تعيش فى دوامة المعركة ، ترنو بعين قريرة الى ولدها وهو يثأر لها ولأبيه ، ويذود عن الحمى .. حتى حوصر أخيرا بكتيبة من جند الأعداء ، أعياهم أمره فأهابوا بأمه أن تنصح له بتسليم سلاحه ، وأنذروها بأن يدمروا البيت عليها وعليه ان لم يستسلم .

واذ فهمت ما يبغون نظرت اليهم بعينيها يتطاير منهما الشرر ، ثم صاحت فى انكار : ثكلتكم أمهاتكم ! أنا أنصح لولدى بتسليم سلاحه ؟ خاب فألكم .

ثم التفتت الى ولدها فملأت عينيها منه وهو يفرغ رصاصه فى قلب واحد من الأعداء ، وتلبثت مليا قبل أن تهتف :

ـ مت يا ولدى ، وتحيا مصر !

واختلط هتافها بدوى كالرعد انهار البيت على أثره ، وغاب شخصهما فى سحابة من الدخان ، لم تلبث أن تكشفت عن أنقاض متراكمة ، اختلطت بها أشلاء مبعثرة لاثنين من الفدائيين الشهداء .

ومضى السفاحون ، تاركين من ورائهم هذه الأنقاض المباركة ، ذخيرة لمصر فى حرب الطاغوت ..

★★★

وفى الملأ الأعلى ، تلاقت أرواح الثلاث : الأب والأم والولد ، مع الصديقين والشهداء « وحسن أولئك رفيقا » .

• بنت العمدة

« الله لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم »

عندما لقيتها مصادفة فى زحام العاصمة ، أقبلت عليها مشوقة أحييها فى لهفة وكأنى عثرت بها على صباى الطرى ٠

أما هى فترددت برهة قبل أن تأنس الى ، وكأنها خشيت أن تبدى لهفتها قبل أن تستيقن من صدق اقبالى عليها ٠

ومن تلك اللحظة ، تشبثت كل منا بصاحبتها ، فما عاد يمضى شهر دون أن نلتقى ، فنخلو الى ذكريات صبانا الحلو ونستعيد رؤى ماضينا الخلى الذى ولى وراح ٠

وبدت صحبتنا لمن حولنا غريبـة نـوعا ما ، فقد كان ما بيننا جد بعيد ، غير أنى لم أر غير رفيقة الحداثة وزميلة الصبا الباكر ٠ وخيل الينا أننا لن نعود فنفترق ، اللهم الا أن تضرب بيننا يد الزمن فتفرقنا على الرغم منا ٠

حتى كانت أمسية ساجية من أمسيات هذا الربيع ، وقد خرجت أودعها بعد أن أمضت صـدر الليـل فى ضيافتى ٠

وتلبثنا برهة فى الحديقة نتساءل متى يكون اللقاء التـالى ، وبغتة رن فى مسمعى صوت عواء مبحوح ، كأنه حشرجة كلب يحتضر ، فأجفلت أصغى واجمة ، على حين مضت « حسـنة » فى ثرثرتها غير ملقية بالا الى هذا العواء الممزق .

واذ تنبهت الى اجفالى وشرودى تضاحكت تقول :

ـ لعله كلب ضال شريد ، عثر بقطعـة من العظم فلـم يصبر على معالجتها بل التهمها متعجـلا ، فوقفت فى حلقـه لا تتزحزح .

فأنكرت أذناى صوتها ، وعدت أحدق فى وجهها فاذا بها تبدو لى على ضوء المساء الشاحب ، جامدة الملامح ، منـكرة المعارف ، ممسوخة الخلقة .

قلت وأنا أخفض بصرى فرارا منها :

ـ لقد ذكرنى هـذا النباح اللاهث المكتـوم ، بعـواء « الخرساء » !

فأجفلت هى بدورها ، وسألت : وكنت قد نسيت ؟

ثم لم تنتظر جوابا ، بل جمعت نفسـها واستأذنت فى الانصراف قائلة :

ـ الى الملتقى .

فأجبت دون تفكير : وداعا !

ولم أتبعها ببصرى وهى تـولى بعيـدا ، بل أويت الى مخدعى وما يزال لهاث الكلب الجريح يملأ سمع الليل .

★★★

أجل ، كنت قد نسيت !

نسيت فى غمرة ابتهاجى بلقاء « حسـنة » انها فجعت والدة ضعيفة عاجزة ، فى طفلتها الوحيدة !

وتراءى لى المشهد الرهيب فملأنى رعبا !

فهناك فى ملعبنا بالقرية ، كنا نمرح لاهيات ، وقد وقفت غير بعيد منا صبية مسكينة ترنو الينا فى لهفة ... ، وكلما همت بالاقتراب منا ، أفزعتها صيحة زاجرة من « حسنة » بنت العمدة فولت مذعورة تبكى .

وتكررت المحاولة ، حتى ضاقت بها « حسنة » فأنذرتها بالموت ان سولت لها نفسها مرة أخرى ، أن تطمع فى مشاركتنا ، وهى الفقيرة الضائعة التى هجرها أبوها وانطلق ساعيا وراء « غازية راقصة » وفدت على القرية ذات مساء ، فسلبت لب الفتى الغر ، وساقته وراءها مكبلا بسلاسل غلاظ لا يملك منها فكاكا .

وترك من ورائه هذه الطفلة جنينا فى أحشاء أم مسكينة لا أهل لها ولا مال ، فخرجت بحملها تكدح وراء لقمة العيش ، حتى اذا ناءت به وأعياها أن تعمل ، تسولت تستجدى ما يمسك الرمق ، الى أن وضعت طفلتها فعادت تستأنف الكفاح الذليل المر ..

وكانت تتردد أحيانا على دار العمدة تلتمس الخدمة ، تاركة طفلتها ضالة فى الطريق ، فما كان السادة ليأذنوا لها أن تصحبها معها ، حتى اذا آبت من عملها آخر النهار راحت تبحث عن طفلتها فى الأزقة والدروب والغيطان ، الى أن تعثر عليها فتعود بها الى كوخها ، لتطعمها وتدفئها ، وتهيىء لها من حضنها مرقدا .

وكان ملعبنا الحافل يجذب الطفلة الضالة فتسعى اليه بالرغم منها ، وانها لتعلم ما ينتظرها من سخط « بنت العمدة » وغضبها ، ولكن الطفلة عجزت مع هذا عن قهر رغبتها فى اشتهاء الفرجة علينا والاقتراب من ملعبنا ، فكان العقاب صارما بشعا !

ولم يدر بخلدى قط وأنا أسمع « حسنة » تنذر الصبية

بالموت ان هى جرؤت على عصيان قرار الحرمان ، أنها جادة فى ذلك الانذار ، حتى وقعت الكارثة فكأنما دهمتنا على غير ترقب أو انتظار ·

غدونا الى ملعبنا ذات أصيل نحتفل بأرجوحة جديدة جاء بها « العمدة » من العاصمة الكبيرة ، مصر أم الدنيا ! لم تكن « حسنة » قد جاءت بعد ، فاذا بالصبية تتسلل الى الملعب، تسوقها قوة قاهرة غلابة ، لا تملك دفعا · واذ رأتنا ننظر اليها فى عطف ورحمة ، دون أن نبدى ضيقا بها أو ازدراء لها ، نسيت نفسها وراحت تلهو وتمرح كذلك ، حتى بوغتنا بصيحة ذعر ، فالتفتنا فاذا بحسنة قد أمسكت بالصبية من شعرها ، وراحت تجرها بعيدا عن الملعب فى قسوة بالغة وغيظ جامح · وحسبنا أن الأمر لن يعدو ابعاد الصبية عنا ، فعدنا الى ما كنا آخذات فيه من لهو ولعب وما يخطر ببال احدانا ، أن « حسنة » سوف تقذف بالطفلة اليتيمة الى جوف الترعة ! حتى راعتنا ضجة مفاجئة مختلطة الأصوات ، جعلتنا نعدو نحو الترعة الكبيرة لنعرف ما الخبر ·

هناك ألفينا الصبية المسكينة قد أخرجت من الماء جثة هامدة باردة ، متقلصة الملامح تعلوها زرقة غبراء ، وقد أكبت عليها أمها تعوى ملجمة اللسان ، قد أخرستها الصدمة ·

وجاء رجال العمدة فانتزعوها فى قسوة فظة ، وخيم على القرية سكون واجم يمزقه من حين الى حين ، عواء الخرساء ·

ولبثنا بضع ليال وهذا العواء الأليم يذود الكرى عن أجفاننا ، ثم خرس الى الأبد مخلفا وراءه صدى جريحا ممزقا مازال يتردد ملء الفضاء العريض حتى هبت القرية كلها تطلب الثأر للصغيرة الشهيدة ·

وحاولت القرية ما وسعها الجهد أن تثير اهتمام رجال الادارة بقضية الضحية البريئة ، فأعياها أن تجد منهم من يصغى الى « ثرثرة فارغة عن مخلوقة حمقاء ، غرقت قضاء وقدرا » !

ولم تجد القرية أمام هذا الجمود الا أن تصبر على مضض وتكل الأمر للمنتقم الجبار ·

وحدثت بعد حين أن أصيب العمدة بداء خبيث عضال ، فتك به عـلى مهل ، فلم يمت الا بعـد أن هده السقم واذله المرض ، وكانت صرخات توجعه تسمع فى جـوف الليـل ، مختلطة بالصدى الباقى من عواء المفجوعة الخرساء · فرأت القرية أن الله قد انتقم لطفلتها الضـائعة وان ظلت مع ذلك ترجم قبر الظالم باللعنات !

ولم يبق لأهله من بعده هناك مقام، فرحلوا عن المنطقة ·

وبيعت أرضهم وتفرقوا ·

وصمت الصدى الحزين فلم يعد يلم بالقرية ، وهجعت عيون أهلها بعد أن ألح عليهم القلق والسهاد ، وطوى الزمن الفاجعة فيما طوى ، وعفى على ما بقى من آثارها بجدية من أحداثه ومآسيه ·

★★★

وأما شهود المأسـاة ــ وأنا منهـم ــ فقد حملتهم دوامة الحياة على متنها الدوار فبعثرتهم ذات اليمين وذات الشمال، وطحنت منهم من طحنت ، وشغلت من بقى بهموم دنياه ·

ولقيت « حسنة » فما ذكرت ضحيتها المسكينة ، ولا لمحت فى أهابها « بنت العمدة » التى طوح بهـا صلفها وقسـوتها وغرورها بجاه قومها وراء انسانية الانسان ، بل وجـدت فيها رفيقة الصبا فحسب ، حتى كان هذا العواء اللاهث الذى سمعته يتردد فجأة فى المساء الساجى ، فلمع صداه فى ضوء المساء الشاحب كنصـل حاد ، مزق الستار عن كل ما طواه الزمن فى متاهة النسيان !

• غنيـة

هذى بضاع الناس معروضة فعاشروا العالم
أو فارقوا !

لم تكن ذات حظ من ثقافة أو جمال ، فقد نشـأت فى الريف قبل عهده بالمدارس ، وأبت أسرتها أن تبعث بها الى المدينة لتتعلم ، اذ كان خروج البنات وقتذاك أمرا منكرا فى تلك البيئة ، كما كان تعليمهن يلقى عليهن ظلا من غضاضة وامتهان ، أثرا لمخلفات عصر مضى جعل أول مدرسة مصرية للبنات ، ـ أنشئت فى عهد محمد عـلى ـ وقفا عـلى الاماء الحبشيات ثم اليتيمات المعوزات !

ولهذا لم تأس « غنية » على ما فاتها من تعلم ، ولا شاقها أن تسير مع فوج الطليعة الذى بدأ فى طفولتها يخرج لأول مرة الى ما وراء أسوار القرية سعيا وراء الشعاع الجديد . كان حسبها أن ترى فى هذا الفوج ، بنات مأذون القرية وحلاقها الصحى ، وفقيه الكتاب ، والمقرىء الذى يطوف بالدور كل صباح لتلاوة ما تيسر من القرآن الكريم ... كان حسبها أن ترى هؤلاء البنات فى فوج الساعيات الى مدرسة المدينة ،

لتزهد فى الأمر كله وتخرجه من نطاق اهتمامها ، فما كان لمثلها أن تندمج فى أمثال هؤلاء البنـات أو تدور معهن فى فلك واحد ، وهى التى تعيش من ثراء أهلها فى عز عريض •

انما الذى كان يشغل تفكيرها حقا ، هو أن لم يكن حظها من الجمال كفاء حظها من الغنى والشبع ، ولعلها لم تلق الى الأمر بالا فى مستهل صباها ، فقد كانت هى من السـذاجة والغرور بحيث يفوتها ادراك ما للجمال من أهمية وخطر فى سوق البنات ، حتى اذا ما تزوجت لداتها وأترابها جميعـا ، وتركتها وحدها توغل فى الحلقة الثالثة من العمر ، أحست فجأة ، فى شىء من المرارة والقهر والحسرة ، أن ما فاتهـا كثير •

ولم يغن عنها ثراء أسرتها شيئا ، بل لعله كان مسئولا الى حد كبير عن محنتها ، فلكل بنات الريف فرصتهن للزواج المبكر دون استثناء • حتى ذوات العاهات فيهن ، يجدن من يرضون بهن زوجات و (غنية) تعرف كثيرات من الفلاحات ، تزوجن على علاتهن ، وفيهن الشوهاء والعرجاء ، وما كانت (غنية) وهى السوية الخلقة العادية الشكل ، لتعدم خاطبـا أو اثنين أو أكثر ، لولا أن قام ثراء أسرتها يصد عن بابهـا الخطاب المتواضعين الذين لا يبغون من المرأة الا أن تلد الأولاد وتشارك فى حمل أعباء العيش التى ينوء بها كاهل الرجـل منفردا ، فأما الاكفاء لمصاهرة أهل (غنية) الأثرياء ، فما لهم فى مثلها رغبة ، اذ يطلبون عادة فى الزوجة المختارة شيئا أكثر من تلك المطالب المتواضعة ، وهكذا ضاعت (غنية) بين من يرضون بمثلها وليسوا كفئا لها ، وبين من يزهدون فيها من الأكفاء لفقرها فى الجمال •

وشعرت بالمرارة تسرى مع ريقها فلا تدع طعاما يدخل فمها دون أن تمتزج به وتشوب مذاقه • وشيئا فشيئا لم يعد الغذاء يفيـدها أو يقضى حاجة بدنهـا ، حتى ظن قومهـا

ـ لفرط شحوبها ونحولها ـ أن قد انتابتها علة خفية تمتص حيويتها ،أو أن ضيفا من الجن قد سكن في بدنها وراح يلتهم كل ما يدخل فى جوفها من طعام !

وحملوها الى طبيب بعد طبيب ، فلما يئسوا من الطب لاذوا بمن يدعون الاتصال بالجن فى عالمهم السفلى الخفى ، لكن حيل هؤلاء وأولئك ضاعت عبثا ... وصار كل يوم يمضى يقتطع فلذة من كيان الفتاة ، ويبرى ما يكسو من لحم، الى أن أمست أشبه بهيكل عظمى .

وضاع الأمل ، ولم يبق الا أن تروضها الأيام والليالى على محنة العنوس وقهر الحرمان ثم تهبها راحة اليأس !

★★★

لكن الأيام جاءت بأغرب ما شهدت القرية فى تاريخها كله ، والليالى تمخضت عن أعجب ما سمعت دنيا (غنية) من قبل أن يخلق الله الشاعر الذى قال :

والليالى من الزمان حبالى

مثقلات ، يلدن كل عجيبه !

ففى الوقت الذى كانت (غنية) تنحدر فيه حثيثا الى منفى العوانس الكئيب على هامش الحياة ، امتدت يد القدر فجذبتها فجأة وهى على حافة المهواة ، وانطلقت بها فزفتها الى الحياة من جديد ، فى احتفال بهيج لا عهد للريف بمثله .

وكانت القرية حينذاك تستمرىء خمولها الفاتر فى موسم الركود ، فما راعها الا ضجيج الفرح يوقظ من فيها ، ففتح الناس أعينهم فى دهشة من يرتاب فى يقظة ، وراحوا يحدقون فى موكب العروس كما لو كانوا يشهدون صورا عجيبة من خيال الظل . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون :

ـ أهذا عرس (غنية) حقا !

وحق لهم أن يعجبوا وأن يستريبوا ، فما كان أحد

ـ حتى غنية نفسها ـ ليجرؤ على أن يحلم لها بالزواج من فتى قاهرى أنيق عريق الجاه ناضر الشباب ، يدير مؤسسة تجارية ضخمة يملكها أبوه فى أكبر حى تجارى بالعاصمة .

حتى اذا انتقلت ضجة الفرح الى قصر العروس بالقاهرة ، عاد السكون يخيم على القرية ويلف أهلها الراقدين فى خمول ، يحاولون أن يتمثلوا مباهج ليلة الزفاف الكبرى فى المدينة ، فيرتد اليهم خيالهم كليلا مهيض الجناح .

وانثنوا يتساءلون من جديد :

ـ أى سحر جلب لغنية هذا الزوج بعد أن شارفت اليأس؟ وأى حظ أوقع فى شبكتها الواهية ذلك الصيد الثمين ؟

واذ أعياهم أن يظفروا بجواب ، اكتفوا بأن يضيفوا الأمر كله الى عجائب القدر ، ومعجزات القدرة الالهية . ثم عادوا يتثاءبون ، وعيونهم رانية الى الماشية التى ترعى فى الغيطان ، وأفكارهم حائمة حول موسم الحصاد الوشيك .

وانتهت قصة (غنية) ، أو هكذا خيل اليهم .

لكنها لم تكن بدأت بعد ، فهناك على باب القصر المنيف بالعاصمة تخلى الحظ فجأة عن العروس التى انتشلها من قاع اليأس ، فدخلت بهو الحفل مرتبكة الخطو ، حائرة النظرات تحف بها سيدات أسرتها وقد بدون فى زينتهن الساذجة ، وحليهن الريفية الموروثة ، أشبه « بنمرة » فى حفلة تنكرية ساهرة !

وخطف الوهج بصر العروس حين استقبلتها سيدات القاهرة الأنيقات فى زيهن العصرى الخلاب ، فلم تعد تجرؤ على رفع رأسها ، بل جلست على منصة العرس مطرقة ، وهى تشعر ـ وان لم تفتح عينيها ـ بالنظرات التى حطت عليها من كل جانب ، تفحصها وتعريها وتكشف عما تطويه فى أعماقها من خوف وخجل وشعور بالنقص .

وراحت الهمسات تلف حولها وتدور ، ثم تصب فى أذنيها قطرات من السخرية والهزء والتعجب ..

ومات قلبها بين أضلعها ، وتعطلت مشاعرها ... فلم تعد تفكر الا فى شىء واحد هو أن تسكت الضجة وينتهى هذا العذاب .

لكن ضجة الحفل سهرت حتى مطلع الفجر .

وعذاب العروس لم ينته الا ليبدأ من جديد .

وشهد مخدع (غنية) أتعس مشهد . اذ وقف الشاب ينكرها ويعلن بملء تصميمه أنه لن يرضى بها زوجة ، وابوه الى جانبه يحاول ما استطاع أن يروضه على احتمالها ريثما يتدبران الموقف .

ولم يكن الشاب قد رأى الفتاة قبل ليلته هذه ، فقد خطبها له أبوه من أخيها حين التقى به فى الحجاز ، وبهره ما رأى من مظاهر ثرائه ونعمته ، فلما عرف أن له شقيقة بكرا لم يتردد فى خطبتها لولده الوحيد ، لعلها تدعم بثروتها مركزه المالى الذى كان حينئذ يهتز مترنحا فى أعقاب الحرب ، ويوشك أن ينقض وينهار . وانتظر الأب حتى عاد الى القاهرة فصحب ولده الى أهل العروس فى الريف ، حيث أقاما هناك ثلاثة أيام ضيفين عزيزين مكرمين ، طافا خلالها بأطيان الأسرة التى تبلغ ثلاثمائة فدان ، وكان هم الأب أن يستيقن من كونها موروثة وليست مستحدثة يملكها شقيق الفتاة ، فلما اطمأن الى ذلك ، خلا بابنه حيث أجريا عملية حسابية لتقدير نصيب الفتاة من هذا الميراث ، فاذا به يزيد على خمسة وثمانين فدانا من أخصب منطقة .

وخرجا من خلوتهما بدار الضيافة يطلبان شرف مصاهرة البيت الكريم ، وتمت اجراءات الخطبة والعقد على عجل . وأغلى الأب فى مهر العروس رغم متاعبه المالية ، فما كانت ألف جنيه فى حسابه ثمنا باهظا لاجتلاب الصيد الثمين .

ولم يحاول الشاب يومئذ أن يرى خطيبته ، أو لعله حاول فنهره أبوه ، فان فتاة كهذه تخطب لمالها ، وقد يجرح كرامتها ــ فى بيئة مثل بيئتها ــ أن يطلب الخاطب عرضها للفحص والمعاينة ، والأمر بعد يقتضى اللباقة والسرعة ، قبل أن ينكشف المركز المالى للأب ، وقد كان حتى تلك اللحظة يبدو متماسكا مستورا •

والآن وقد تم الزواج ووقع الصيد الثمين فى الشباك ، يريد الشاب أن يفلته ، ويهدم كل ما بنى أبوه !

انه اذن لأحمق مجنون !

ورضى الشاب أخيرا أن يمسك العروس ريثما تدع له زمام ميراثها يسترده من أخيها ويتصرف فيه على هواه •

وتمت الخطوة الأولى فى سهولة ، فما كانت (غنية) فى غشية ذهولها وسذاجة عقلها وضعف ارادتها لتملك أن تفكر أو تدبر ، بل أسلمت قيادها لزوجها دون أن تكلفه مشقة أو تجشمه أى عناء ، فوكلته رسميا فى المطالبة بحقها فى تركة أبيها ، ثم التصرف فيه نيابة عنها •

ومن ثم تركها الشاب وانطلق الى القرية ، كيما يفاوض أخاها فى حساب التركة •

★★★

تلقاه الأخ مرحبا ، وأصغى الى حديثه فى هدوء شاذ وعلى فمه ابتسامة أعيا الشاب القاهرى فهمها ، ثم قام الأخ الى خزانته وما يفارقه هدوءه ، وجاء بوثائق الميراث ، فاذا كل ما تملك العروس ثلاثة أفدنة لا تزيد قيراطا !

وتساءل الأخ : ما الحيلة الآن ، وهذه الأفدنة الثلاثة مشاعة فى المزرعة الكبيرة ؟

ثم أضاف فى تسامح وكرم : على أنى مستعد لشرائها بالثمن الذى يعرضه أى راغب فى الشراء !

وأحس الزوج بلطمة القدر تفقده وعيه ، فتهاوى على مقعده يصغى فى ذهول أبله الى صهره ، وقد راح يحدثه عن تاريخ الأسرة ، وكيف كد أبوه وكدح فى سبيل جمع هذه الثروة ، فلما أحس دنو أجله ، باع لولده كل ما يملك ، باستثناء ستة أفدنة تركها لابنته وزوجته ، وبذلك يحول دون تفتيت المزرعة الغالية ..

ورحل عن الدنيا مطمئنا الى أن الطامعين الغرباء لن يقتحموا هذه المزرعة الغالية ويمزقوها ، بل تبقى كما هى، ترحب بابنته اذا نبذها زوجها بعد أن يخيب طمعه فى ثرائها الموهوم !

وعاد الزوج الى القاهرة تشيعه ابتسامة اشفاق من صهره ، ودخل على عروسه وهو يتحسس اثر اللطمة القاسية التى صفعه بها القدر ، فارتد الى المسكينة يسومها سوء العذاب وينتقم منها للخدعة الكبرى التى ضيعته واياه معه ، يغريه تجلدها بمزيد من تعذيبها حتى يستنفد صبرها فتتخلى عن كل مالها من حقوق الزوجية ، وتبرئه من مؤخر صداقها ونفقة عدتها وتساومه على الخلاص ..

فلما غلبته بصبرها واحتمالها ، جاءها بغانية من بنات الهوى ، راحت تتفنن فى العبث بها ، حتى أضاعت رشدها .. ففرت هائمة على وجهها تضرب فى الطرقات على غير هدى ، الى أن انتهى بها المطاف الى القرية ، حيث عثروا عليها مكبة على قبر أبيها تنبشه بأظافرها ، وهى تهذى بما فعلت بها الأيام !

● عمياء

« الله نور السموات والأرض »

لا أدرى لماذا تذكرتها وحدها ــ دون سائر رفيقات الصبا ــ وأنا أحث خطاى عبر الحقول فى طريقى الى دارنا !

وتمثلتها تنطلق فى هذه الربوع ، صبية حسناء بلونها الأشقر الذى انفردت به عن كل بنات القرية ، كأن لم تلفحها شمس بلدنا ، ولا شربت من نيله القمحى ، ولا أكلت من قمحه الذهبى .

وكان بياض بشرتها كافيا وحده لأن يتوجها ملكة للجمال فى القرية ، وطالما وقفنا نحدق فيها مبهورات ونعجب لماذا آثرتها السماء دوننا بهذه البشرة البيضاء كاللبن ، وان حاولنا فى الوقت نفسه أن نتطاول عليها ونخفض من حسنها بما أضفنا اليه من غباء وثقل دم ! لكن شيئا من هذا لم يحد من غرورها وزهوها ، بل ظلت تسرف فى عرض حسنها اللافت ، فتسبل قصة من شعرها الناعم على جبينها الوضاء ، وتتألق فى صقل بشرتها ، على نحو لم تألفه بنات الريف ،

ولا كن بحيث يجرؤن على مثله أو أقل منه ، والقرية كلها أعين راصدة .

أما لماذا تركت القرية « زاهية » على هواها ، فلأنها يتيمة قامت على تربيتها أم تشتغل « مولدة » . وهى حرفة تأذن لها أن تدخل فى كل دار وأن تخرج فى أى ساعة من ساعات الليل أو النهار ، دون أن تسأل : لم ؟ والى أين ؟ ومن ثم اضطرت القرية الى التسليم بحق الفتاة فى قدر من التحرر والانطلاق ، تأباه على غيرها من عذارى الريف .

واعتادت أمها أن تصحبها معها الى أكثر الدور التى تدعى اليها فى الأطراف البعيدة من المنطقة ، على حدود المدينة ، فتعود الصبية فى كل مرة ، وملء جعبتها أحاديث مثيرة عن النساء ، وملء يديها هدايا جذابة ، تبهر أعيننا التى لم تشهد مثلها من قبل . وكان من بين ما جاءت به ، مشط مرصع بفصوص من الماس على هيئة تاج ، وتشكيلة من المخرمات المزخرفة والخرز البراق لحلية الثياب .

وطالما ضاق « الشيخ مرسى : فقيه الكتاب » بمظهرها البراق وتأنقها المسرف ، وألح عليها بعصاه كى تكف عما سماه تبرجا فاضحا ، حتى انتهى الأمر بطردها من الكتاب ، وحرمانها من التعليم ، وهو حرمان لم يبد على « زاهية » أنها اكترثت له ، بل لعلها رأت فيه راحة من اجهاد الدرس ، ونجاة من الزجر والتأنيب ، وتوفيرا لوقتها الذى كانت تضيعه فيما يشق عليها من حفظ القرآن وتسميعه . وهكذا تحررت من القيد الوحيد الذى كان يربطها ، وانصرفت الى العناية بحسنها وزينتها ، غير ملقية بالا الى لعنة « الشيخ الفقيه » ولا خائفة مما أنذرها به من خسران وضياع ، بعد أن ضيعت الفرصة لحفظ كتاب الله عز وجل ، وفرطت فى حظها من نوره .

ومن تلك اللحظة تجنبناها ، اذ كان يخيل الينا أن اللعنة سوف تحيق كذلك بمن يقترب منها ، وأن النور الذى يملأ

صدورنا الحافظة لآيات القرآن ، سوف ينطفىء أن دنونا من تلك التى نبذت الكتاب الكريم ظهريا .

وحاولت الفتاة أول الأمر أن تواجه موقفنا منها بما في طبعها من التحدى والعناد ، وأن تسخر بمخاوفنا التى ألقاها في روعنا شيخ مخرف في السبعين من عمره ، قروى ساذج أمضي حياته بين الكتاب والمسجد شبه سجين ..؟

لكن شجاعتها خانتها بعد أن رأت اصرارنا على تجنبها ، فتسللت ذات مساء من القرية ثم لم تعد ...

وقال بعض الذين لمحوها عندئذ ، انها كانت دامعة العين مرتجفة الأوصال .

★★★

تلك الفتاة التى ذكرتها وحدها فى ذلك المساء الساجى ، وأنا أدلف الى دارنا شمالى القرية فى أقصى الشمال ..

والتفت الى أختى التى تقيم فى القرية فسألتها :

ـ ما فعلت الأيام بزاهية ؟

فعجبت لسؤالى وقالت : ما الذى ذكرك بها الآن ؟ ..

أجبت بعد تأمل قليل :

ـ فى الحق لا أدرى : لعل الذى ذكرنى بها أنى أجتاز الآن الطريق الذى مرت به المسكينة فى مثل هذه الساعة هاربة منا ، أو لعلنى ذكرتها حين لمحت مئذنة المسجد من بعيد فتمثلت « الشيخ مرسى » وهو يلح فى زجرها ، أو لعلى ذكرتها بهذا الغدير الذى كانت تضحك علينا ونحن نغسل بمائه العكر وجوهنا وأيدينا وأرجلنا ، حين كانت هى لا ترضى بغير الماء الصافى والصابون الغالى أو لعل . ولعل ... فهلا حدثتنى عما فعلت بها الأيام !

فصمتت أختى برهة ، ثم قالت وعيناها الى السماء :

ـ مسكينة ! لقد وهمت أن ابتعادها عن القرية ينجيها من الرقابة والمطاردة ، ولم تدر أن القدر يتربص بها فى كل خطوة ، ويرصدها حيثما أقامت ، فى القرية أو المدينة ، فى السهل أو الجبل ، فى الكهف أو الغاب .

فعقبت قائلة :

ـ حق ما تذكرين ، لكنك لم تجيبى بعد عن سؤالى .

فكان ردها : ذاك حديث يطول ، وأوثر أن تسمعيه منها حين ترينها بعينيك ، فهى مقيمة هنا منذ عامين لا تبرح مكانها !

فأجفلت على الرغم منى : أراها ؟ وأسمع حديثها ؟

لقد خيل الى أننى أرجع خمسة وعشرين عاما الى وراء ، فاذا بى الفتاة الريفية الساذجة التى كنتها ، تشفق من مجرد الاقتراب من « زاهية » وتخشى أن ينطفىء نور القرآن فى صدرها ، اذ ما جرؤت على التحدث اليها .

وأدركت أختى ما يساورنى فبادرتنى بقولها :

ـ لا بأس عليك من رؤيتها ، فقد كفرت عن خطئها وارتدت الى حظيرة الرحمن !

★★★

رغبت فى أن أراها فى آمسيتنا تلك ، فحادت بى شقيقتى عن الطريق الموصلة الى دارنا ، واتجهت شرقا تسلك دروبا ضيقة ملتوية ، حتى بلغت ضريح « سيدى الأربعين » من أقصر الطرق .

ودخلنا ، فاستقبلتنا هناك امرأة زرية المظهر خشنة الثياب ، كليلة البصر ، كأنها عمياء !

وهمست أختى : هذه هى !

قلت على الفور :

ـ كلا فما فيها من « زاهيـة » أى ملمح ولا بينهما أى شبه !

وعدت أحدق فى المسكينة : أهذه الممسوخة الشوهاء ، كانت يوما ما ملكة الجمال فى ريفنا ؟! أين شعرها الذهبى الذى طالما ضمخته بالعطر وسبسبته على جبينها الزاهى ؟ وأين بشرتها الناصعة التى طالما ازدهت بها وباهت ؟ بل أين أناقتها المسرفة ، ودلالها المفرط ، وحسنها اللافت ؟

لا أثر أى أثر !

وعدت أردد : كلا ! ليست هذه « زاهية » بحال ..

وبلغ صوتى مسـمعها ، ولشـد ما دهشت حين رأيت وجهها المغبر يشرق بابتسامة راضية ، ثم اذا بها تمد يدها الخشنة تتلمس يدى ، فى حركة ضريرة عمياء .

وقالت فى صوت هادىء النبرات :

ـ الحمد لله ! الآن اطمأن قلبى اذ أنكرتنى رفيقة الصبا ولم تلمح فى كيانى أثرا من تلك التى كنتها ! ذلك ما كنت أبغى ، بل ذلك هو ما سعيت اليه جهدى منذ ألهمنى الله أنه لن يغفر لى ذنبى حتى أصير مخلوقة أخرى غير تلك الحسناء المفتونة التى جنى عليها حسنها .

وقامت تصلى ، حتى اذا أتمت صلاتها عادت الى تقول :

« عبثا حاولت أن أفر من اللعنة ! كان صـوت الشـيخ مرسى يلاحقنى فى عناد واصرار ، وكلما جاهدت فى الافلات منه ازداد قوة وبخاصة حين يجن الليل وأخلو الى نفسى فى الظلام » .

حتى خفت على نفسى الجنون فقررت أن أهـرب منهـا ، وحرصت على ألا أخلو بها مهما يكلفنى الفرار ، كما صممت على ألا أقيم فى الظلام لحظة واحدة ، كيلا أتيح لشبح الشيخ المطارد أن ينفرد بى وسط تهاويل الظلمة .

وهكذا عشت فى ملاهى الليل الصاخبة ، أشتغل راقصة من مغرب الشمس الى مطلع الفجر ، ثم أرتمى على فراشى منهوكة الجسد عشواء البصر ، حيث تتسلمنى الأحلام المفزعة .

ولم يبق أمامى الا أن أفر من النوم ! ولمحنى رجل من رواد المرقص وأنا أقف فى آخر الليل ، حائرة ضائعة ، فدعانى الى مسكنه ، وتبعته معطلة الحواس مشلولة الارادة ، لا أفكر الا فى شىء واحد ، هو أن أفر من الوحدة ، والظلام ، والنوم !

لكنى لم أكد أدنو من بيت الرجل حتى لمحت شبح الشيخ مرسى يقف بالباب ، فأفلت مذعورة ، ورحت أجرى فى الزنقات هائمة ضالة شريدة .

وساقتنى قدماى، على غير ارادة منى، الى المرقص ثانية، فاذا بى أفاجأ بزميلة لى ، تسألنى : كيف جرؤت على أن أسرق عشيقها ؟ وقبل أن أرد عليها ، قذفت وجهى بماء النار .

وهتف بى هاتف وأنا أرتمى على الأرض وأتلوى صارخة متخبطة : هو ذاك الظلام الأبدى يا عمياء ، فأين المفر !

كلا ، لا مفر !

وفى المستشفى رقدت شهرين وحيدة منبوذة ، معصوبة العينين ! وكنت موقنة أن الشيخ المطارد لن يكف عنى الا اذا انتحرت أو جننت !

لكنى ، لشدة دهشتى ، أحسست شعاعا من النور يومض خلال الظلمات المحيطة بى ، وميزت فى صوت الهاتف نبرة رفق ورحمة .

هنالك ألقى فى روعى أن باب الله لن يوصد أمامى ، اذا تخلصت من كل ملامحى الأولى ووقفت أمام الباب الطاهر ذليلة تائبة .

وخرجت من المستشفى وقد اعتزمت أمرا :

نزعت عنى ثياب المدينة ، ارتديت هذا الثوب الخشن الرخيص ، والتمست من قادنى الى هـــذا الضريح حافيــة القدمين مشوهة الوجه ، زرية الهيئة ٠

وحسبت أن لا يعرفنى أحد ، لكن الشيخ مرسى سعى الى هنا غداة جئت ، فتلا على مسمعى كلمات فى الله عز وجل :

« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم » ٠

ثم دعا لى ، وخرج الى أهل القرية يوصيهم أن يترفقوا بالعمياء التائبة ، التى اعتصمت ببيت الله ، فما عاد لأحــد عليها من سبيل ! »

وجرؤت على أن أسألها :

ـ أفما يعاودك حنين الى النور ؟ ٠٠

فهتفت بكل جوارحها :

ـ كـــلا ، فما كان الا الضوء البراق الخـــادع ، يعمى القلوب والأبصار، «ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور» ٠

ولما ودعتها ومضيت ، تناهى الى سمعى فى سكون الليل، صوت من الزاوية يرتل فى خشوع :

« الله نور السموات والأرض »

• ناعسة

وودعتها ومضيت ألتمس الطريق الى دارنا ، وبى خوف من الغد حين أرجع الى المدينة ، فأرى « ناعسة » فى كل فتاة من الريف هناك !

غبت عن قريتنا أعواما خمسة لم أجرؤ فيها على دخول دارنا بعد رحيل أمى ، وان بقيت الأيام والليالى أحوم بروحى حول تلك الربوع المهجورة التى كانت لصبانا مهدا وملعبا .

وخاننى الصبر يوما فتسللت الى القرية أحاول أن أعيش لحظة فى الأمس الذى ولى وراح . وبلغتها فى غبش المساء ، فى تلك الساعة التى تمسك القرية فيها أنفاسها فى انتظار لقمة العشاء ، ويغمر الكون صمت عميق لا يكاد يسمع فيه سوى نباح كلب ضال ، أو صراخ طفل أعياه الانتظار .

وكان بصيص من الضوء المختنق بالدخان ، يلوح لى على البعد منبعثا من المواقد فى أفنية الدور المكشوفة ، وعلى

الأفق النائى كانت قطعة شاردة ممزقة من الشـفق الأحمـر تذوب فى العتمة رويدا رويدا •

وعند المدخل القبلى للقرية ، ثقلت خطواتى حتى ما عدت أستطيع نقل قدمى الا بجهد ومشقة ، فاتكأت عـلى جـذع شجرة من أشجار الجميز الضخمة المعمرة ، أرنو فى خشـوع وأسى الى المعبر الضيق الذى يفصل الطريق العام عن مقبرة القرية ، وقد تراءت لى فيه أطياف من عرف من الذين عبروه مرة محمولين على الأكتاف ، ثم لم يئوبوا بعدها أبدا •

واستروحت للذكرى والعبرة ، فلم أكد أشعر بالظلمة وهى تتكاثف من حولى ، بل لم أكد أحس وحشة او انقباضا وأنا واقفة بمفردى على حافة مدينة الموتى ، أرقب مواكب الراحلين التى تتابعت فى غـير انقطاع ، الى مثـواها تحت الثرى •

لقـد صغرت الدنيـا فى عينى اذ ذاك ، وتضـاءلت ، البشرية بكل غرورها وكبريائها ومكابرتهـا ، وجمـدت مشاعرها فى كيانى فكأنما عدت روحا هائمة لا تنتمى الى هذه البشرية بسبب •

وفجأة خيل الى أننى أرى طيفا ينفلت من الركب السارى فلا يكاد يجتاز المعبر الضيق حتى يتجه الى القرية فى خطوات متعثرة وهو يتلفت ذات اليمين وذات الشـمال ، ولم أشـك فى أنهـا رؤيا عابرة نقلتنى من عالم الحس المشـهود الى ما وراء منطقة الوعى واليقظة ، حيث تضطرب صنوف شتى من رؤى مشخصة تمثـل لنا أرواح المـوتى وهى تنطلق اذا جن الليل ، لتلم بمن لا يزال فى دنيا الأحياء من أحباب ، فتحوم حول ديارهم وتهوم على مضاجعهم ، ثم تئوب من مسراها قبل أن يدركها الفجر ويكشفها نوره •

كذلك خيل الى ، حتى التفت الطيف نحوى مرة ، فوقف غير بعيد منى يلهث مذعـورا • واذ ذاك فقط تبينت أمامى مخلوقة حية من البشر توشـك أن تتهـاوى من ذعر واعياء ،

كأنها كانت مسـيرة بقـوة طارئة زايلتها بمجرد أن وقعت عيناها على ...

دنوت منها أريد أن أعينها عـلى أمرها ، فعرفت فيهـا « الخالة شلبية » وهى أرملة عجوز طيبة ، تسـكن قريبا من دارنا .

وسألتها عما بها ، فما راعنى الا أن قالت فى ضراعة :

- ورحمة أمك الغالية ، تسترين على .

قلت وأنا لا أفهم مغزى كلامها :

- ولكنا ما علمنا عليك سوءا قط ، فمم تخافين ؟

همست وهى تنتفض :

- لا تقولى لأحد انك رأيتنى هنا ، فان زيارتى للمقابر تخزينى عندهم .

فقدمت لها كتفى تتكىء عليها ، وسرت بهـا الى دارها وأنا أؤكد لها الوعد الذى طلبت ، وان بدا لى الأمر كله لغزا من الألغاز .

وحين هممت بتركها، تذكرت أن لها حفيدة مليحة نزحت الى المدينة منذ أعوام . وكنت قد تعودت من «الخالة شلبية» أن تسألنى كلما رأتنى فى القرية ، ان كنت قابلت «ناعسة» بمصر ... فأضحك لسـؤالها وأحاول عبثـا أن أفهمها أن (مصر) دنيا بأسرها ، يسكنها ملايين وملايين ، ويتوه فيها ألوف من مثل « ناعسة » .

تذكرت هذا ، فرابنى من أمر الخالة شلبية أنها - لأول مرة منذ عرفتها - لم تسألنى عن « ناعسة » .

وكنت أحب الفتاة وأعطف على صباها اليتيم وملاحتها المرهقة بالبؤس والحرمان ، وأرثى لحادثة ألمت بها وهى تتفتح للحياة فكسرت خاطرها : مات أبواها وهى تدرج فى عامهـا الخامس وتركاها لرعاية هذه الجدة العجوز بغير أهل ولا مال .

وكان الظن ألا تعمر الجدة طويلا ، لكنها ـ على غير ما توقعنها ـ تشبثت بالحياة من أجل هذه الصغيرة اليتيمة ، وكل مناها ألا تموت قبل أن تطمئن عليها وتسلمها الى زوج طيب ابن حلال يحميها من الدنيا .

وكنا جميعا نعرف أن « ناعسة » مسماة لشاب فقير تصله بها قرابة بعيدة ، فما كان للجدة حديث سوى هذا الزواج المنتظر ، وقد عجلت بقراءة الفاتحة ولما تتجاوز حفيدتها عامها الثانى عشر ، وراحت تملأ لياليها بسمر متشابه ، يعدها بالأمن والهناءة والاستقرار فى كنف خطيبها ابن الحلال الطيب المكافح .

وأحبت « ناعسة » فتاها وهى لا تعرف من الحب الا انه التفكير الدائب فيمن سيكون شريك حياتها ، والانتظار المتلهف لليوم الموعود الذى تزف فيه عروسا للرجل الوحيد الذى دخل عالمها الموحش القلق ، فبعث فيه شعاعا من الرجاء .

ولكن الفتى ذهب الى المدينة ، فضل طريق العودة الى القرية والى الفتاة التى تنتظر هناك .

وسمعنا أنه تزوج من فتاة حضرية لعوب ، تشتغل « تمرجية » معه فى أحد مستشفيات المدينة .

ومن ذلك الحين لم نر « ناعسة » الا واجمة مكتئبة ، حتى خافت عليها جدتها فرضيت آخر الأمر أن تسلمها الى قريبة لها متزوجة من موظف فى مصر، لعلها تتسلى أو تسلو .

وقد شجع الجدة على هذا ، أنها كانت تشعر بدنو أجلها ، فخافت على الصغيرة بعدها من الضياع .

وكانت قريبتها تلك عقيما شارفت سن اليأس ، وطالما ألحت على العجوز أن تدع لها « ناعسة » كى ترعاها وتتخذها بنتا . ولكن الجدة لم تكد تسلم صغيرتها حتى ساورها قلق غامض وأحست وحشة أليمة لفراقها ، وقد حاولت ما استطاعت

أن تتصبر وأن تذود تلك الهـواجس التى تعذبهـا ، معللة نفسها بأن الله قد أراد بالصبية خيرا حين هيأ لها كافلا وأما ٠

وألفنا بعد ذلك أن نرى « الخالة شلبية » تتلقف أنباء العائدين منا الى القرية ، فتقف بأبوابهم تستجدى كل عابر منهم، أخبار العزيزة «ناعسة» وتستحلفهم بالله أن يحدثوها كيف حالها فى بلاد الغربة ٠

وكان هذا عهدى بهـا قبل أن أغيب عن القـرية ، حتى رأيتها فى تلك الأمسية الحزينة تنفلت من المقـابر ، فرابنى منها أنها لم تسألنى سؤالها المألوف عن « ناعسة » ٠

ترى هل مس الصبية سوء ؟

مر هذا الخاطر ببالى فلم أقاوم رغبتى فى الاطمئنـان عليها ، وقلت أسأل « شلبية » :

ـ كيف حال ناعسة يا خالة ؟

فروعنى أن أشهدها ترتد عنى مجفلة ، وهى تتساءل :

ـ كأنك لا تعرفين ما جرى لها ؟

أجبت فى دهشة :

ـ لكنك تعلمين يا خالة أن قدمى لم تطأ القرية منـذ ماتت أمى ٠

فهزت رأسها مستريبة وهى تقول :

ـ أجل أعلم ، ولكنك سمعت قصتها من أهل مصر كلهم ٠

فلم أدر بم أجيب ، اذ كنت أعلم أن من العبث اقناعها بأن (أهل مصر) لم يشعروا بوجود فتاتهـا وآلاف مثلهـا ، وأن أحدنا هناك لا يدرى شيئا عن شئون جاره المقيم معه فى منزل واحد ٠

واستطردت هى قائلة دون أن تنتظر منى جوابا :

« وقد حدثوك عنها ، عن المسكينة التى خرجت من القرية عذراء طاهرة غريرة ساذجة ، فلم يمض عام عليها هناك حتى لفظتها المدينة وردتها الينا امرأة ضائعة تتعثر فى اثمها ٠

« وهنا فى القرية ، ستسمعين القوم يلاحقونها باللعنات حتى بعد أن صارت بين يدى خالقها ، وسترينهم يرجمون قبرها المنبوذ بالحجارة ، لأنه أوى جثة خاطئة ٠

« ولن تجدى سواى من يرحم ذلها ويبكى مصابها ٠ لن تجدى سواى من يقسم لك أنها ما أثمت الا لأنها تجهل الاثم ، ولازلت الا لأن طهرها كان لا يعرف معنى الزلل ٠

« ولو نطقت هذه الجدران المتحجرة الجامدة ، لشهدت معى بما سمعت من حديث الضحية التعسة ، ولو أصغى الناس لهذا الذى سمعت ، لرجمونى بالحجارة بدلا منها ، فبلسانى هذا علمتها أن تحب خاطبها الغادر فعرضتها للصدمة البشعه التى حطمت قلبها الغض وسممت صباها الحلو ٠ وبيدى هذه أسلمتها الى امرأة جاحدة عقيم ، قلبها من صخر وكبدها من حجارة وعواطفها من ثلج ، تفننت فى القسوة عليها فما كادت الصغيرة تحس بادرة من عطف الزوج حتى ظنت ـ لفرط سذاجتها وطهرها ـ أنه الملاك الكريم ، بعثه الله ليحميها من قسوة زوجته ، ريثما تعود الى مأمنها فى حضن جدتها ٠

« وما زال بها يستدرجها فى عطف وخبث حتى أفضت اليه بما تجد من قهر لهجر خطيبها ٠ فراح الشيطان يعتذر للهاجر بما تعرض له من اغراء لا يقاوم ، فان لفتيات الحضر فى اجتذاب الرجال فنونا وأساليب ليست لبنات الريف ، ولو قدر لناعسة أن تعرف بعض هذه الفنون لاستردت فتاها الهاجر فى غير مشقة ٠

« وما كادت الطفلة المسكينة تتلقى الدرس الأول حتى أيقنت بغريزتها أنها خسرت كل شىء ٠

« وأبت الى بعارها ، فأقامت بهذا المكان لم تبرحه الا الى القبر .

« وما سمعتها قط باكية ولا شاكية، وانما تحملت عذابها ومحنتها فى صمت فاجع ، وعاشت أشبه بجثة .

« وحين ماتت ، خرجت بهـا فى ليلة كهـذه فواريتهـا التراب تحت جنح الظلام، وأضجعتها فى قبر منبوذ ، ثم عدت أستغفر الله لى ولها .

« أم ترين أن الله لا يغفر لأمثالنا ؟ »

فأمسكت عبرتى وأنا أتلو قوله تعالى :

« ان الله لا يغفـر أن يشرك به ، ويغفـر ما دون ذلك لمن يشاء » .

فكأنما نزلت كلمات الله على المسكينة بردا وسلاما .

وتشبثت بى تسألنى فى توسل :

ـ تهبين هذه الآيات الكريمة لروح صغيرتى الضائعة ؟

قلت وقلبى يتمزق :

ـ أجل يا خالة ، وأقرا معها الفاتحة على روح ناعسة .

فلم تصدق أذنيها حتى أعدت عليها ما قلت ، ثم رفعت وجهى الى السماء وتلوت سورة الفاتحة .

وودعتها ومضيت أتلمس الطريق الى دارنا ، وبى خوف من الغد حين أرجع الى المدينة فأرى (ناعسة) فى كل فتاة من الريف هناك ...

الفهرس

الموضـــوع	صفحة

الموضـــوع	صفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٩١/٩٥٢٥

ISBN — 977 — 01 — 2922 — 4

ونمت الطفلة ونما معها إدراكها .

بدا لها أن كل من فى البيت يرهب النهـر ، ورابتها نظرات حزينـة شاردة ، تـرسلها الأعـين كلما وقعت عليه ... فأحست أن ثمة سرا مروعا بين البيت الكبير وهـذه الأمواه التى تجـرى من تحته ، وصـور لهـا وهمها - المشحون بالأساطير - شبحا يثب من أعماق اليم فى جنـح الظـلام ، فيطـوف بحجـرات البيت وابهائه ، ويجثم كالكابوس على أنفاس الراقدين .

٤٥٠ قرشـا
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب